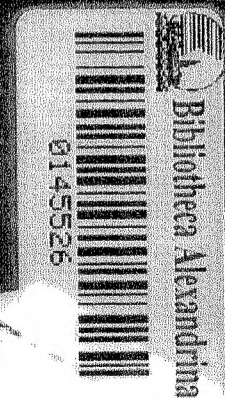


ميخائيل نعيمة

لقائى



لقاء

میخائیل نعیمہ

لقاء


مؤسسة نوفل
بيروت، لبنان

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف والناسخ

الطبعة الثانية عشرة

1995



© مؤسسة نوفل شمم

ماتية سوفيل، شارع المتمازيق
تلفون ۳۵۴.۸۹۸ - ۳۵۴.۳۹۴، تلاكسن ۱۴۴۱، بوسن
من ب ۱۱/۴۱۶۱، ب. ب. رات، ل. ل. ل. ل.

الوَيْعِيَّةُ

كان الهزيعُ الثالثُ من اللَّيلِ . وكنتُ غارقاً في حلم مزعج
عندما أيقظتني طرقةٌ عنيفةٌ على الباب خيلتها للوهلة الأولى بعضاً
من ذلك الحلم . فأجفلت . ثمّ ما لبثتُ أن سمعتُ صوتاً لاهفاً
يناديني : « افتحْ افتحْ . هذا أنا . »

صوتٌ ما عرفتهُ أذني . ولا استيقظتُ له أقلّ ذكرى في
دمي . ولكن لهفة ملحاحّة جرتُ إليّ في مويجاته جعلتني أنهض
في الحال من سريري ، وأثير مصباحي ، وأسرع إلى الباب فأفتحه
قبيلاً أن أجمعَ أفكارِي وأسأل نفسي عن الطارق من عساه
يكون ، وما حاجتهُ إليّ في مثل تلك الساعة من الليل .

وما كاد نورُ المصباح يقعُ على الزائرِ حتى سمعتني أهتفُ
بصوتٍ يتكلّف اللطف محاولاً أن يخفي ما فيه من دهشة :

« آ . ليوناردو ؟ »

« هكذا أدعى . أسمحُ لي بالدخول ؟ »

« من غير شك . تفضل . تفضل . »

ومشينا إلى ردهةٍ جلسنا فيها على كرسيين متقابلين .
وكان زائري يتأبط كمنجة في بيتٍ تلبس بجلدٍ ذهبي اللون ،
ثمين . ولإذ جلس وضعَ الكمنجة على ركبتيه ، ثم تناول لفافة
من التبغ وأشعلها وراح يمجج الدخان من أنفه ومن فمه مجاً
متواصلاً ، فلا يتوقف حتى لنفص الرماد . وكانت أصابع يده
الثانية تنتقل أبدأ في حركاتٍ سريعة من طرف الكمنجة إلى
طرفها ، كأنه كان يستوثق من سلامتها أو كان يخشى أن ينبت
لها بغلة جناحان فتطير من بين يديه .

لم أشأ أن أكون البادئ بالحديث . ولكن زائري أتلّف
لفافتين وأشعل الثالثة من غير أن ينطق بكلمة ، ومن غير أن
يرفع نظره عن الأرض إليّ . وأخيراً قلتُ وقد بدأ صمته
الطويل يزعجني :

« أما أدهشك أنني عرفتُك في الحال وما رأيتك غير مرة
في حياتي ، وذاك منذ عام أو أكثر من عام ؟ »

« بل كان يدهشني لو أنك لم تعرفني . »
 « غريب . أواثقٌ أنتَ مِنَّ أنْ مَن رآك ولو مرة
 لا ينساك ؟ »

« بل أنا واثق من أن مَن سمعني مرة ، كما سمعتني أنت ،
 لا ينساني . »

« ولكنني ما سمعتُ صَوْتك قبل الآن . »
 « فأطرق الرجلُ هنيهةً ثُمَّ قال مستغرباً :
 « إذن كيف تقول إنك عرفتني ؟ »

« إن ملاحك ما تزال منطبعة في ذاكرتي . هذا الشعرُ
 الفحيم ، الأجدد ، اللامع ، المسترسل على أذنيك ، وهذان الحاجبان
 الكثيفان المنبسطان فوق عينيك ، وهاته الأهداب الطويلة التي
 تظلل محجرين واسعين تدور فيهما حدقتان سوداوان ذاهلتان ،
 وهاتان الشفتان الرقيقتان المشدودة أطرافهما بأثقال كآبة تأبى
 السفور ، وهذا الأنف الدقيق الأفي ، والجبين العالي الأبي ،
 — أجل ، هذا الوجه الحنطي ، الشاحب ، المستطيل ، الغني بمعانيه ،
 ما نسيته ولن أنساه البتة . وأصابعك الممشوقة ، المرهفة ، وقد
 كانت حركاتها الرشيقة تسيل سحراً على الأوتار . كيف لمن

رأها مرّة أن ينساها ؟ »

« أهذا كلّ ما انطبع في ذاكرتك منّي ؟ »

« لا . ما نسيت كمنجتك . فكأنها في تلك الليلة التي رأيتك

فيها كانت قطعة منك . أما صوّتها العذب فما برح في أذني . »

« وتقول إنك ما سمعتَ صوّتي من قبل ؟ »

« أقول لاني لم أسمع صوتك — صوتك أنت . وقد سمعتُ

صوتَ كمنجتك . »

« وهل صوت كمنجتي غير صوّتي ؟ »

قال ذلك بصوت من يخاطب نفسه . ثمّ ضمّ الكمنجة إلى

صدره ، وانحنى فوقها انحناءة أحسستُ فيها تأنيلاً لطيفاً ، صامتاً

موجّهاً إليّ يرافقه حنان لا يوصف نحو الكمنجة ذاتها .

وكان سكوت طويل ، ثقيل ، — سكوت شعرتُ معه كأنني

أسأتُ إلى زائري فخيبتُ أملاً من آماله بي . أو كأنّني جنيتُ

عليه وعلى كمنجته إذ كلمته عنها كما لو كانت آلة موسيقيّة

لا غير . ورغبة مني في عو الإساءة ، وتنقية الجو ، لأسهل عليه

الوصول إلى الغاية التي من أجلها جاء ، رحتُ أذكره بتلك

الليلة التي رأيتُه فيها لأوّل مرّة . فقد كانت ، في الواقع ،

غنية بالذكريات ، نادرة بين الليالي . قلت :

« أتذكر حفلة افتتاح «فندق المنارة» ؟ »

« كيف لا ، وقد كانت فائحة حياتي وخاتمتها . »

« أكلمك كلاماً بسيطاً وتكلمني بالألغاز . لا بأس . فأنت
من رجال الفن . وصديقي سليم الكرام لم يبالغ في وصفك قطّ
يوم جاء يغربني بك لقبول دعوته إلى الحفلة . فقد كان
يعرف شديد كرهه للحفلات بأنواعها ، لا سيما التي يكثر
فيها المهرج والمرج والثرثرة ، والفرح المقرض من الكأس
وقرص الحلوى . »

« وكيف أغراك بي ؟ »

« قال : ستسمع كمنجة ما سمعتَ مثلها في حياتك . »

« ولم يقل : ستسمع لاعباً على الكمنجة ؟ »

« بل قال : ستسمع كمنجة . »

« ما كنتُ أظنّه دقيق الذوق إلى هذا الحدّ . »

« تعني أنّه جعلك والكمنجة كياناً واحداً ؟ بلى . سليم ذو
حسن مرهف وذوق رفيع . وقد بقي يتحدثني عنك نحو
الساعة حديث من وقع على كتر ثمين عندما حظي بك ليضمك

إلى جوقة الفندق الدائمة . ولما سأله عن جنسك وعن بلادك
أجابني أنه لا يعرف عنك أكثر مما شئت أن تبوح به . وذلك
أنك من أبٍ لبناني وأمٍ إيطالية . وأنك درست الكمنجة في
إيطاليا ثم عدت إلى بلادك لترتق من موهبتك بُعيد أن مات
والداك ولم يتركاك من حطام الدنيا غير كمنجتك . وأنك
تأبى أن تتكئى بكنية والدك أو والدتك وأن تُعرفَ إلا باسمك
« ليوناردو » لا غير .

« ذاك ما أقوله للناس دفعاً لفضولهم . »

« أتعني أن الحقيقة غير ما . . . »

« دعنا من ذلك الآن . وأخبرني : ماذا قالت لك كمنجتي
في تلك الليلة ؟ » — وشد الكمنجة إلى صدره بلهفة وحنو .
« لقد خاطبتي ببيان ما سمعتُ في حياتي بياناً يدانيه عذوبة
ورقة ومعنى لا من فم ولا من قلم ولا من وتر . وبالأخص في
ذلك اللحن الذي دعوته « لقاء » فكان أكثر من لقاء . كان
في البداية حرقه صاهرة فتحوّل في النهاية نشوة ربّانية . كان
حينئذ غامضاً كالضباب ، تائهاً كالدخان ، فصار طمأنينة فيها صفاء
النور واستقرار الأبد . وكنت كأنتك الكمنجة وكانت الكمنجة

كأنها أنت . ومعاً كنتما ذلك اللحن العجيب الذي لن أنسى
تأثيره ما حييت . وما أظنّ غيري من الذين سمعوه ينسونه .
لا سيما ابنة صاحب الفندق – الآنسة بهاء . كنتُ جالساً بجانبها ،
وكنْتُ أحسّ اهتزازاتٍ غريبةٍ تجري إليّ من جسمها المفعم
بعافية شبابها الغضّ وجمالها الفائق الوصف . فقد كانت همسات
كنجتك وصيحاتها تفعل فيها فعل الكهرباء . فما دهشتُ عندما
أغمي عليها في آخر اللحن . بل كأني كنتُ أتوقع ذلك . ثمّ
كان ما كان من بلبلّة وذعر انتھيا ، والحمد لله ، بسلام . إي ،
لقد كانت ليلة فريدة في الليالي . »

وقفتُ عن الكلام لأفسح المجال لجليسي علّه يبوح لي بسرّه.
إلا أنه ما ازداد إلا اعتصاماً بالصمت . وقد لاحظتُ تغيراً كبيراً
في وجهه وحركاته . فامتقع لونه ، وتقطب حاجباه ، وأخذتُ
شفثاه ترتجفان ، وغامتُ عيناه المحملقتان بالمصباح ، وارتخت
يداه فعادت الكمنجة من صدره إلى ركبتيه ، وجمدت أصابعه
فما تتلمسُ الكمنجة بلهفة من طرف إلى طرف .

بقيتُ دقائق عدّة أفتشُ عن حديثٍ أغريه به على الكلام
فلم أجِد أفضل من حديث الفندق وصاحبه وزوجه وابنته .

فهو يعزف في الفندق منذ أكثر من عام ويعرف أصحابه ويعرف ما بيني وبينهم من صداقة . إذأ فالموضوع قريبٌ منه ومني وعزيز عليه وعليّ . لذلك عدتُ بعد ترددٍ فقلت :

« السيد سليم من خيرة رجالنا على الإطلاق . رجل فهميم وشهم كريم . وزوجه كذلك من خيرة نساتنا ، وإن تكن أقلّ منه فهماً وكرماً ، أما ابنتهما بهاء — صانها الله — فما إخال من السهل وجود صنوة لها لا في هذه البلاد ولا في سواها . فهي حقاً آية من آيات السماء على الأرض . ولا غرو أن يتعلق بها والداه إلى حدّ العبادة . ألا توافقني في ذلك ؟ أمس كان عيد مولدها التاسع عشر . ولا شك أنه كان عيداً بهياً . »

سكوت .

« زياراتي لهم نادرة لأن حياتي بعيدة عن حياتهم . وها أنا لم أرَ أحداً منهم منذ ليلة الافتتاح . فكيف هم ؟ عساهم في صحة وخير ؟ »

سكوت .

« بلغني أن بهاء قد خُطبت لشاب من أسرة كريمة في المدينة . وإنّي لأرجو أن يكون جديراً بها . فهل عرفته ، وما رأيك فيه ؟ »

سكوت .

عندئذ فرغت حيلتي فقررت بدوري أن ألوذ بالصمت فلا
أتكلم حتى يتكلم . ولقد نجح الصمتُ حيث لم ينجح الكلام .
فما هي إلا دقائق معدودة حتى نهض زائري عن كرسيه حاملاً
الكمنجة بيديه الاثنتين وقال بنبرة عصبية :

« جئتُ أستودعك روحي . »

« ماذا تقول ؟ »

« روحي . روحي . أريد أن أأتمنكَ عليها . »

« ومن أنا لأؤتمنَ على الأرواح ؟ »

« أنت أنت . وأنا أعرف من أنت . وكنجتي لن تكون

في أمان إلا في كنفك وبين يديك . »

« آ . تريد أن تتركَ كنجتك وديعة عندي . ولكنها

مسؤولية عظيمة تحمّلني إياها يا صاحبي . »

« هي أكبر من أن يحملها سواك ، وأصغر من أن تحملها

أنت . وكلّ ما أرجوه إليك ألا تدعَ عيناً غير عينك تقع عليها ،

ولا يداً غير يديك تمسها . وأن تحفظها في مكان لا تتسرّب إليه

الرطوبة . وفيما عدا ذلك فأنت في حلّ من كل مسؤولية نجاها . »

« أعلّك على سفر . »

« أجل ، على سفر . »

« وإلى أين ؟ »

سكوت .

« عفواً ، فقد يكون سؤالي تدخلاً فيما لا يعنيني إلاّ أنّه

يعنيني أن أعرف متى تعود . »

« قد أعود في أسبوع . وقد لا أعود في سنة . أمّا إذا

انقضى الحولان ولم أرجع فأرجوك أن تحرق الكمنجة في بيتها

وأن تجمع رمادها وتدفنه بين جذور صنوبرة ، على أن تكون

صنوبرة مسنة ومنقردة . »

« إنها لوصيّة غريبة . وأنت شديد التّكّم ، فما أجروا أن

أسألك عن معناها . »

« لا تسلّني فوق ما في استطاعتي أن أعطيك . فإمّا يأتي

يوم تفهم فيه كل شيء . وإما يبقى كل شيء مغلقاً عليك -

إلى الأبد . »

« لا بأس . فما هو أول لغز يخلق عليّ فهمه . ولكن ... »

« ولكن لقد صاح الديك واكفهر الليل . وعليّ أن أنطلق

قبل أن يدركني الفجر. إليك وديعتي. فاحرسها ولا تذكرني بسوء. «
وبسط إليّ ذراعيه المرتعشتين ، والكمنجة عليهما ، ثم انحنى
فوقها وقبلها قبله طويلاً . وكأنني لمحتُ بريق دمعتين في عينيه.
فتناولتُ الكمنجة منه برفق أقرب ما يكون إلى الخشوع وقلتُ
وفي صوتي غصّة :

« ليطمئن بالك . فستكون عندي بمثابة حدقة عيني . وإني
لأرجو أن تعود إليها قريباً فتسمعي بعض نقاتها ، وألاً أفجع
بحرقها ، لا سمح الله . لا سمح الله . «
ومشي زائري بخطوات متناقلة نحو الباب . ومشيت خلفه .
وما إن مدّ يده إلى الباب وهمّ بفتحه حتى التفت إليّ وقال
بصوت متلجلج :

« لي وصيّة أخيرة . ولعلها أصعب ما أوصيتك به . ذاك...
ذاك أن تكتم أمر مجيئي إليك هذه الليلة عن كل مخلوق في العالم ،
وألاً تبوح بحرف أو بحركة مما دار بيننا . أتعاهدني... أتعاهدني
على ذلك ؟ »

« وإذا سئلتُ ، أتريدني أن أقول لا حيث يجب أن أقول
نعم ؟ أتريد أن أكذب ؟ »

« رَبِّ صَدَقَ كَانَ أَكْذَبُ مِنْ كَذِبٍ. وَكَذِبَ كَانَ أَصْدَقُ
 مِنْ صَدَقَ . وَأَنَا صَادِقٌ يَا صَاحِبِي وَلَا غَشٌّ فِيَّ. فَكَيْفَ أُسْتَطِيعُ
 أَنْ أُعَلِّمَكَ الْغَشَّ وَالْكَذِبَ ؟ إِنَّمَا أَطْلُبُ إِلَيْكَ أَنْ تَكْتُمَ عَنِ
 النَّاسِ مَا لَيْسَ مِنْ شَأْنِ النَّاسِ ، وَمَا لَوْ عَرَفُوهُ لِأَسَاؤُوا فَهْمَهُ .
 عَاهِدْنِي . عَاهِدْنِي . »

قلت ، وقد سَدَّتْ عَلَيَّ حَرَارَةُ الرَّجُلِ وَلَهْفَتُهُ مَسَالِكَ
 الْجَدَلِ وَالْخَنْدَرِ :

« لَيْكُنْ مَا تَشَاءُ . وَلَكَ عَهْدِي عَلَى ذَلِكَ . »

« أَنَا ذَاهِبٌ . » – وَفَتَحَ الْبَابَ وَخَرَجَ . فَقُلْتُ :

« رَافَقْتُكَ السَّلَامَةَ . وَإِلَى الْلِقَاءِ . »

فَتَوَقَّفَ هَنِيئَةً وَسَمِعْتُهُ يَتِمَّمُ : « لِقَاءٌ . لِقَاءٌ . » ثُمَّ التَفَتَ
 إِلَيَّ وَقَالَ بِصَوْتٍ عَالٍ :

« قُلْ : إِنْ شَاءَ اللَّهُ . » فَأَجَبْتُهُ مَتَمَهَلًا بِاللَّفْظِ كَنْ يَقْطَعُ

الْكَلِمَاتِ إِلَى مَقَاطِعَ :

« إِنْ شَاءَ اللَّهُ ! » وَلَبِثْتُ وَاقِفًا بِالْبَابِ أَسْمَعُ وَطءَ قَدَمَيْهِ

وَأَرْقُبُ شَبَحَهُ الْمُتَبَاعِدَ عَنِّي عَلَى ضَوْءِ مَصْبَاحِي الضَّئِيلِ ، إِلَى
 أَنْ ابْتَلَعَتْهُ غُبْرَةُ اللَّيْلِ الرَّاحِلِ فَمَا بَقِيَتْ أَسْمَعُهُ وَلَا أَرَاهُ .

الكمنجة الحبيسة

مرت ثلاثة أيام ما تمكنتُ في خلالها من أن أصرف فكري
 عن ليوناردو وزيارته الغريبة المليئة بالأسرار . وعجبت لي
 كيف أنتي استسلمتُ لإرادته بمثل تلك السهولة ، فقبلتُ
 وديعته وصدق كل ما قاله فيها . وما أدراني أن في بيت
 الكمنجة كمنجة حقّة لا قنبلة أو أفعواناً أو فرخ شيطان؟ ثمّ
 ما أبسطني بل ما أجهلني ، أعاهده ألاّ أبوح لإنسان بزيارته
 وبما كان بينه وبينني . فقد يكون في الأمر ما لا يحمل بي
 السكوت عنه وما لا تحمد عقباه . وقد يوقعني السكوت في
 ورطة كريمة . ولكنّ الصّدق كان يفوح عليّ من كلّ نبرة
 في صوت الرجل ، وكل حركة من حركاته ، وكان يشيع في
 وجهه وثيابه . فلم أشتمّ منه أقلّ رائحة للمكر والنفاق . أفمن

الممكن أن تخونتي فراستي ، وأن يخذلني قلبي إلى ذلك الحد ؟
 لا . لا . فالرجل لا غُبار على صدقه البتة . ولكن لماذا ألح أن
 أعاهده ، ولماذا عاهدته على السكوت ؟ لقد كان عليّ أن أرفض ،
 ولقد كان التسليمُ ضعفاً لا مبرر له . وما نفع تأنيب النفس
 بعد فواتِ الوقت ؟ لقد قطعتُ عهداً ، ولا سبيلَ إلى نقضه
 الآن . فلا مناص من التمسك به . ومن ثمّ فأني ثار للرجل
 عندي حتى يتقيني من بين كلّ الناس ويدفع بي إلى المكاره ؟
 ليس جليلاً أنه اختارني لعظيم ثقته بي ؟ فمن الإثم إذاً أن أقابلَ
 ثقته بسوء الظنّ والشكّ .

وأنا كذلك إذا بسيارة فحمة تقف بالقرب من بيتي فيترجل
 منها كهل ممشوق القامة ، عامر البنية ، عرفتُ فيه للحال صديقي
 الكرام . ولا أدري لماذا انقبض قلبي وغشي فكري شيء من
 الضباب . فقد شعرتُ أن وراء زيارته الفجائية خبراً مشؤوماً .
 إلا أنني تكلفتُ السرور والابتسام وخرجت لاستقباله هاتفاً :
 « أهلاً ، أهلاً وسهلاً بالصديق سليم ! »

فأجابني لاهثاً وما يزال على بضع خطوات مني وقد تهدّل
 شارباه وتبعثر الشعرُ على رأسه الحاسر ، وبدا الإهمال في ثيابه

وزينته ووجهه ، وهو الرجل المشهود له بالأناقة وحسن القيافة :

« الصديق لوقت الضيق . أما أنت — عافاك الله — فلا للفرج ولا للضيق . » — قال ذلك ودخل البيت تَوّاً من غير أن يضافحني . ثمّ جلس وراح يمسح وجهه بمنديل من الحرير كَمَن أعياه التعب أو بَلَّه العرق ، في حين أنه لم يمشِ سوى خطوات معدودة ولم يكن للعرق أو للغبار أقلّ أثر على جبينه .

جلستُ بالقربِ منه ، ووضعت يدي على كتفه مرتبّاً ، ثمّ قلتُ وأنا ما أزال أحارب شعوري القاتم بعكسه :

« أهلاً ، أهلاً بسليم . ما أحلاها زيارة وقد مرّ بي أكثر من عام ولم أرك . إني لأعرف لماذا جئت . لقد جئتُ تدعوني إلى حفلة زفاف بهاء . أليس كذلك ؟ »

فانتفض صديقي انتفاضة كلها ألم وغضب واربد وجهه ، وأخذ ييدي فشدّ عليها حتى كدت أصرخ من الوجع ، ثمّ حملق بي طويلاً وقال وكأنّه يعربد :

« أما كفالك أن تهجرني في محنتي حتى جئت تنكأ جرحي فوق ذلك ؟ لا . ما جئتُ أدعوك إلى زفاف بهاء بل إلى مأتمها . » وأجهش بالبكاء كأنه الطفل في أول فطامه . فانعقل

لساني ، وجفّ حلقي ، وغام بصري ، فلا الكلام ينقاد لي ،
ولا أنا أدري ماذا أفعل أو ماذا أقول .

لأنها في الواقع لمصيبة خرساء عمياء أن يفقد هذا الرجل
وزوجه وحيدتهما في حين كادا يقطفان السعادة صافية ، سائغة ،
كاملة . فقد حباهما الحظّ من البجوحة ، وحسن السمعة ،
وجودة الأخلاق ، والهناء الزوجيّة ما جعلهما موضوعاً للحسد
والإعجاب معاً . ثمّ باركت الأقدارُ بحبّوحتهما بابتئهما بهاء .
وهما شغوفان بها إلى درجة الجنون . ولا عجب . فقد جمعتُ
هذه الفتاة إلى سداجة الطفل نقاوة الملاك وصفاء النبي فنّا هي
باللعب الطروب رغم سنيها التسع عشرة ، ولا هي بالترصّة
المتجهمة رغم رزانتها الفطرية وحكمتها البديهيّة . تبسم ولا
تضحك ، وتكلم من غير أن ترفع صوتها ، فكأنها تهمس
همساً . ولكنه همس تترقرق فيه أعذب الألحان ، وتتمازج
ألطف الألوان . لا ترقص ، ولكن في مشيتها أنبل ما في الرقص
من تموجات الحياة .

كنتُ شديد الإعجاب ببهاء ، وكانت تستأنس بي فلا
تخاطبني إلا بقولها « يا صديقي الأعزّ » . وكان لا يطيب لها

أن تحدثني إلا في الشعر والموسيقى والأمور التي ندعوها
 « ما وراء الطبيعة ». حتى إنني لشدة نهما في هذه الموضوعات ،
 كنتُ أخشى على روحها النقيّ الفتيّ أن يصابَ بشيء من
 « الاحتقان » أو « عسر الهضم » ، إلا أنها كانت تبدّد كلّ
 مخاوفي من هذا القبيل بما تبديه من مقدرة عجيبة ، لا عناء فيها
 ولا إجهاد ، على الغوص إلى الأغوار السحيقة والسموّ إلى
 بواشق الفكر والخيال .

كنتُ أحاول أن أجلو في ذاكرتي وجه بهاء بمعانيه الدقيقة ،
 الناعمة ، المتناهية تناسقاً وانسجاماً ، ثم أن أصوّرُها لنفسي جثة
 هامدة ، فما يطاوعني فكري ولا تنساق الصورة الكاملة لخيالي .
 وينكمشُ قلبي لا أسفاً عليها فقط ، بل حزناً على والدها
 الجالس بجانبها وعلى والدها المفجوعة في المدينة . وأفتش عن
 كلمة أقولها فما أجدها . حتى إن جوّ الغرفة راح يضغط على
 صدري كما لو كان صفائح من رصاص . وأخيراً زفر
 صديقي زفرة حرّاقة وقال بصوت يقارب همس :

« قم بنا . »

« إلى أين ؟ »

« إلى المدينة . إلى البيت . نُكِنّا ببهاء وأخشى أن نُنكب
بأمتها كذلك . لنمشر . »

« ولكن . . . ولكن أخبرني . أخبرني بما كان ومتى
وكيف كان . »

« عجباً كيف لم يبلغك من الأمر شيء وهو حديث المدينة
— بل حديث البلاد — منذ أيام . »

« أما تعرف في أية عزلة أعيش ؟ فلا عجب أن لا أسمع
بما جرى . »

« لا تُضِيعِ الوقتَ سُدًى . سأخبرك بكل شيء في الطريق .
أوصدْ بابك وهيا معي . لعلنا نستطيع أن نخلص حياة
أم بهاء . »

انصَعَتْ لمشيئة صاحبي الذي ما إن دخلنا السيارة حتى أمر
السائق بأن يسرع على قدر ما في محرك السيارة من سرعة .
وكان الفصل ربيعاً ، والنهار لم يبلغ أشده . وكانت المسافة
التي تفصلنا عن المدينة نحو سبعين ميلاً ، والطريق كثير اللفّ
والدوران ، آنأً في بطن وادٍ ، وآونة على رأس أكمة .
والأرض مزهوة بالخضرة البكر ، والجوّ سكران بالأريج ،

والعصافير مجنونة بالحب والغناء والسعادة الزوجية ، فما يتعب لها جناح ولا تبسح حنجرة . وصديقي لا يسمع غير فحيح الداهية التي دهمته ، ولا يحس غير أنيابها تغور أبعد فأبعد في قلب سعادته البيئية لتتركها عما قليل شلواً من أشلاء السعادات البشرية المكدسة على مفارق الطرق في طول الأرض وعرضها .

أما أنا فكنتُ أحاول أن أصرف أبصاري عن بهجة الأرض والسماء فلا تنصرف ، وأن ألفت أفكاري بظلمة الموت التي كانت تتخبط فيها أفكار جاري فتأبى أن تلتف بغير النور . ورحتُ أساجل نفسي بنفسي فأعجبُ للغشاوات التي تسلفها كلمة أو حركة أو حادث على أبصار الناس فتبدل ضياءها ظلاماً وظلامها ضياء . وأعجب للناس كيف يعجزون عن تمزيق تلك الغشاوات ؛ بل على العكس من ذلك يفتنون في صقلها ولا يفكّون يدعمون نسيجها الواهي بنسيج من قلوبهم حتى تصبح سداً أصمّ منيعاً بينهم وبين العالم الأوسع .

ها هو صديقي يتنفّس مثلي هواء الربيع المنعش فلا يتنفّس فيه غير صقيع الموت ؛ ويبصر مثلي دفائن الأرض تملج نضرة ، وغبطة ، وحياة على أديم الأرض فلا يبصر فيها غير حياة دفيئة

لا يأمل لها بالقيامة . وأمس — منذ ثلاثة أيام لا غير — كان لا يتنفس غير جذل الحياة ، ولا يبصرُ غيرَ بهجة الربيع حتى في صميم الشتاء . كلّ ذلك لأن غشاوة قد أسدلت على بصره إذ أسدل الستار على حياة ابنته . ألعنه واثق من أن ما خلف الستار ليس جميلاً كالذي أمامه ؟ ها هو ستار الشتاء ، — ستار الجمود ، والغيوبة ، والموت — قد ارتفع عن مهرجان من الحركة ، والوعي ، والحياة . فما أدراه أن بهاء وراء ستار الموت ليست أسطع سناء منها أمام ستار الحياة ؟ آ . بهاء . بهاء !

وكانّ صديقي كان يسمع ديب تأملاتي ، فتنحج بغتة ومسح بمنديله عينيه المبللتين وقال :

« يا ويح من ربيعهم شتاء . آ . بهاء . بهاء ! لقد بدلت ربيعنا شتاء . أعرف أنّ محبّتها لك كانت تفوق محبّتها لي ولوالدتها ؟ »
« بل كانت من منبع آخر لا غير . ولكن ، أمّا أنّ »
تخبرني بما كان ؟ »

« بلى . بلى . كان ذلك في عيد مولدها — نهار الاثنين الماضي ، وقد رأينا أن نجعله عيداً مزدوجاً فنفاجىء المدعوين ، وكلهم من عليّة القوم ، بعقد خطبتها على شابّ من خيرة شبان المدينة

هو فؤاد بن جاهد الفهداوي . ولم نخبرك بالأمر ظناً منا أنك
 لن تتخلف عن المجيء . لكنك اكتفيت بريقة . ويا ليتك
 تعرف وقع برقيتك على بهاء ما كان أجمله . فقد كانت عندها
 أنفـس هـديـة جـاءتـها في ذلـك الـنـهـار .

« أقمنا الحفلة في الفندق . وكانت بالحقيقة حفلة نادرة المثال
 لم تشبها أقل شائبة . إلى أن انتهت مراسم الخطبة . فطلبت
 بهاء إلى ليوناردو — لعنة الله عليه — أن يعزف على كمنجته الأثيمة
 ذلك اللحن الذي عزفه في حفلة افتتاح الفندق . وأذكر أنك
 كنت أشد الحاضرين إعجاباً به — أنت وبهاء . ألا تذكره ؟ »
 « كيف لا ؟ لقاء . لقاء . »

« هذا هو . نعم ، نعم . هذا هو . ويا ليت ما كان .
 جلست بهاء على ديوان تجاه منصة الخوقة الموسيقية ، وجلس
 الخطيب عن يمينها وأنا عن يسارها ، مطوقاً عنقها بذراعي ،
 وجلست أمها بجانب الخطيب . والمدعوون بين جلوس ووقوف
 وقد اتجه الكل إلى ليوناردو .

« ما إن مرّ ليوناردو بقوسه على الأوتار حتى خفت كل
 صوت وماتت كل حركة . فلا نحنة ، ولا وشوشة ، ولا عطسة ،

ولا سعة . ومضى في عزفه والناس كأنهم في حضرة ساحر عظيم ، يملون إذا مال ، ويحمدون إذا جمد ، ويعبسون إذا عبس ، ويطبّقون أجفانهم ويفتحونها كلما أطبق أجفانه وفتحها . وبلغ من لحنه فترة راحت فيها الكمنجة تعاتب ، وتشكو ، وتستغيث ، وتنوح . وإذا بزفرات مخنوقة تتصاعد هنا وهناك من الصدور . ومع الزفرات نشيج متقطع . وإذا بعينيّ - حتى عينيّ - -- تغرورقان ، أنا الذي ما ترطب لي جفن إلا لحزن ساحق عميق .

« وما طال أن انقلب عويل الكمنجة هزأاً وشماتة ، ثمّ تحدياً ووعيداً ، ثمّ صولة وجبروتاً ، ثمّ صراعاً عنيفاً ، ثمّ نصراً باهراً ، ثمّ أغرودة علوية ، ثمّ صلاة ممعنة صعوداً في سلاسل الفضاء . وإذا بي ، وعيناّي عالقتان بليوناردو وكنجته وأصابعه ، أحسّ عتق بهاء يلتوي كعتق زهرة تلوي ؛ ثمّ أحسّ رأسها يهبط إلى صدري ويتزلق عنه إلى حضني ؛ ثمّ أحسّ جسدها بكامله يهوي عليّ ، على حدّ ما كان يجري لها في أيام طفولتها حين يغلبها النعاس . فأجمعها في حضني وأسند رأسها إلى ذراعي مثلما كنتُ أفعل وهي طفلة .

« وتسكت الكمنجة فتحوّل القاعة بمن فيها إلى ما يشبه

بيتاً للمجانين : جلبة ولغط ووشوشة وزحف أقدام وكراسٍ ،

وقعقة آنية ، وهتافات : بهاء ! بهاء ! أين الطبيب !

« ظننتها إغماءة وتمضي في دقائق كالتي أصابتها ليلة الافتتاح .

ولكنها في يومها الرابع والحال هي هي . لا أكل ، ولا

شرب ، ولا كلام ، ولا حركة . أجفان مطبقة ، وأنباض ما

أعلم أيّها يكون الأخير . »

« أتعني أنها لا تزال قيد الحياة ؟ »

« فيها بقية حياة . »

« أنت كافر يا سليم . كيف توهمني أنها ماتت وما

تزال فيها حياة ؟ »

« قلت لك بقية حياة . ولكن لا رجاء فيها فكأنها ميتة . »

« حيث الحياة هناك الرجاء . ومن الكفر الذي ما بعده

كفر أن تقيم نفسك وصياً على ربّ الحياة والموت فتجعله

يختم حياة ما آذن بعدُ بختمها . ثم إنك تجهل كل الجهل قصده منها . »

« عزّي بغير هذا الكلام يا صاحبي . فالقلب يأبى أن يرى

للأمل أقلّ بصيص . »

« لا بأس . وما رأي الأطباء ؟ »

« الأطباء . ومتى اتفقوا على رأي ؟ ضعف في القلب .
دود في الأمعاء . هستيريا . حالة نفسية . مرض النوم . ولكنهم
يكادون يتفقون على أن الأمل بالحياة ضئيل جداً . »
وعضّ صاحبي على سبّابته اليمنى ، وأغمض عينيه ، وهزّ
رأسه وسكت . فسكّت احتراماً للوعته . وبقينا كذلك حتى
دخلنا المدينة وشوارعها المحمومة بالحركة التي لا تهدأ . فقال :

« يا لها مقبرة سكانها في رقصة دائمة ! » ثم بغتة :

« ماذا تعرف عن السحر ؟ »

« سؤال غريب . »

« لا تستغربه . فقد جاءني مَنْ أثبت لي أن بهاء مسحورة . »

« ومَنْ الذي سحرها ؟ »

« ذاك اللعين ليوناردو . »

« ليوناردو ؟ إن أكنّ أنا ساحراً فليوناردو ساحر . بل

الأصحّ أنّ ذلك المسكين مسحور لا ساحر . »

« لا تدافعْ عنه . فقد أصبحت على يقين من أنّه خبيث

وأي خبيث . »

« دعك من هذه الترهات يا سليم . وقل لي—بيني وبينك :

هل تحبّ بهاء خطيبها ، أم أنها قبلت به لإرضاء لخاطرك
وخاطر أمّتها لا غير ؟ »

« لكأنّك تجهل بهاء . ما أظنها تعرف ما هو الحب .
وعندما حدثناها في الزواج تقبلتِ الحديث كما لو كان عن
الطقس أو عن أمر عادي لا بدّ منه للبنات ، وهي في جملتهنّ .
فما أظهرت غير الرضى . وخطيبها فؤاد الفهداوي شاب
ممتاز . ستراه بعد قليل ، وهو لا شكّ سيملأ عينك . »
« ألا تقدر أن بهاء التي ما عرفت الحبّ بعد قد عرفته
ليلة خطبتهما ؟ »

« ماذا تعني ؟ »

« أعني . . . أليس ممكناً أن تكون بهاء قد شعرت في
تلك الليلة يجاذب إلى ليوناردو ، وشقّ عليها أن تكون قد
ارتبطت بسواه ، فكان ما كان من جراء عنف الصدمة ؟ »
« لا ، لا . ما أظنّ شيئاً من ذلك . فقد مضى على
وجود ليوناردو في خدمتنا أكثر من عام . فما عرفت ، ولا
عرف غيري ، أنها خاطبته يوماً بكلمة . على أنها كانت تطرب
كل الطرب لكمنجته . والذي أظنه ، بل أعتقد ، هو أن

ذلك الشيطان علق بجبها ، ولعلمه أن لا أمل له بالوصول إليها ، سحرها بكمنجته ليحول دون ارتباطها بسواه ، وإلا لما هرب على الأثر . لكنني واجده لا محالة . فقد تعاقدتُ مع رجال من الشرطة السرية للبحث عنه وإلقاء القبض عليه . ثم إنتني عملت بمشورة محامي فاستصدرت من المحكمة مذكرة توقيف بحقه مدّعياً أنه سرق مني كمية من النقود . إذ لا يصحّ اتهامه بالسحر ولا يثبت لدي ترضي المحكمة . »

« أما السرقة فلديك عليها البينات ؟ ! يا للعار أن يطيح الحزن بعقل سليم الكرام إلى حدّ أن ينسيه شرفه وكرامته ورجولته ، فيتهم إنساناً بريئاً ، تهمة زور ويكثري لإثباتها شهداء زور . »

« كل الوسائل شريف للاقتصاص ممن لا شرف لهم ولا وجدان . وهذا الوغد ليوناردو منهم . أمهلني بضعة أيام فأبين لك أنني على صواب . إنه لساحر خسيس لا غير . ولا بدّ من أن أقبض عليه ولو في آخر المعمورة ، حتى وإن كلفني الأمر كلّ ما أملك . امهلني . امهلني . »

وبلغنا البيت فانقطعنا عن الحديث .



آراء

دارُ الكرام دارٌ فخمة البناء والرياش والموقع . تطلّ على
البحر والجبل ، وتتسمّ ربوة زاهية بشتّى الأشجار والأعشاب
والأزهار . وقد استقلت بتلك الربوة ، واستقلت الربوة بها .
فكانها في المدينة وليست منها .

سألتُ صاحبي أن يدخل بي تواء غرفة بهاء من غير أن نمرّ
بردهة الاستقبال . إذ كنتُ أخشى أن أصطدم هناك بجمهور
من الزائرين وقد جاء بعضهم يؤاسي ، وبعضهم يستفسر ،
وبعضهم يشبع نهم القيل والقال ، والآخر يشارك بلسانه في
البلية في حين قلبه يتلمّظ بالشماتة . أجاز الله كلّ ذي بلوى
من مؤاسيه .

وكان أن الذي هربت منه في ردهة الاستقبال وقعت في

مثله - وقد يكون أشنع منه - في غرفة بهاء . إلا أنني ،
والوالد يجانبي ، مشيتُ إلى سرير المريضة من غير أن ألقت
بمئة أو يسرة . وقد شعرت ، أول ما شعرت ، بثقل الهواء
المشبع بأنفاس الأزهار من ورود وزنابق وباسمين وغيرها .
حتى كأنّ الغرفة دكان زهّار من الطبقة الأولى .

« جئتَ تعزّي بي بهاء يا صديق بهاء الأعزّ ؟ » قالت الأمّ
ذلك ، وكانت جالسة عند رأس السرير ، ومدت يدها لتصافحني .
ولكنها عادت فسحبتهما بحركة عصبية لتمسح أجفانها بمنديلها .
وكأنها خجلت من ضعفها ، فوضعت كفيها على عينيها ، ثمّ
انحنّت برأسها فوق طرف السرير محاولة أن تخفي وجهها في
غضون اللحاف . وبقيتُ كذلك دقائق ما كنتُ أسمع في خلالها
غير نشيجها المتفاوت النبرات . ولقد هالني شحوب وجهها
وازرقاق تحت عينيها .

أما بهاء ، فكانت ملقاة على سريرها تحت لحاف رقيق من
الحرير الأخضر تراكت عند أعلاه وسادات حريرية مطرزة ،
مختلفة الشكل والحجم واللون ، وكانت يداها مسبّلتين فوق
اللحاف ، ووجهها التير الهادئ في إطار بديع من شعرها

الكستنائي اللامع . أجفانها مطبقة ، وعلى وجنتيها حمرة لطيفة شفافة . فلو أن إنساناً غير واقف على حكايتها نظرها في تلك الحالة لما ظنّها غير نائمة أنها نوم ، وغير حاملة الذّ الأحلام . بل إنني أبصرتُ بسمة ألطف من بسمة الفجر تطفو على أساريرها ثم تغيب ، ثم تطفو من جديد ، نظير تلك البسمات التي تعرفها وجوه الأطفال الرضع في حالة النوم .

« تقدم ، تقدم ، والمس يدها وخاطبها بمثل ما كنت تخاطبها ، لعلها تسمع صوتك فتفيق . »

امتثلت لأمر الوالدة وتقدمتُ من السرير وأخذت يدها وناديتها باسمها . فلمحت خبطة خفيفة في حاجبيها ومثلها عند أطراف شفتيها . واعتقدت أنها سمعتني فناديتها ثانية وثالثة ولكن عضلاً من وجهها لم يختلج . عندئذ أقلعت عن كل محاولة أخرى ، وعدت إلى الوالدة فقلتُ لها محاولاً أن أجعل لكلامي وزن اليقين الذي لا يخالطه أقل شك :

« بهاء نائمة ومن الحيف أن تزعجوها بالبكاء وبالأفكار السود . »

« أتظنها تسمعنا ؟ »

« من يدري ؟ وسواء أسمعتنا أم لم تسمعنا ، أليس أن

فيها روحاً مثل ما فينا روح ؟ »

« ولكن روحها في دنيا غير دنيانا . فلا متاً إليها ، ولا منها إلينا . . . ولدي ، ولدي ، ولدي ، بهاء ! يا بهاء عيني ، يا بهاء قلبي ، يا بهاء روحي ، أين أنت يا بهاء ؟ »

« أعطني وتراً من كنجة ذلك اللعين ليوناردو وأنا أردّ إليك بهاء في طرفة عين . » — هذا ، بالفرنسية ، من رجل كنت أجهله ثم قيل لي إنه خطيب بهاء . تفرّسته فألفيته شاباً قارب الثلاثين ، أنيق الهندام ، وسيم الطلعة ، ولكن في ملاحه ما يدلّ على أنّه يعيش في ضحضاح من التفكير والإحساس . ما أجبته ، ولكن رجلاً آخر قيل لي إنه المدعي العام وإنه كان يطمع في يد بهاء قبل خطبتها ، تطوع للجواب فقال :

« لسنا في الأجيال الوسطى والحمد لله . بل نحن في القرن العشرين — قرن النور والتمدّن . والقانون الحديث لا يقيم أقلّ وزن للسحر ، فلا ينصّ على معاقبة السحرة . »

« أما الدين فيعترف بالسحر وينذر السحرة بنار جهنم . » —

هذا من رجل دين جالس بين فتاتين جميلتين .

الخطيب (خالطاً الفرنسية بالعربية وداعماً لسانه بيديه

وحاجبيه وكففيه) : ليتك كنت معي يا سيدي أمس عند الشيخ
 « أبو طقة » . لقد نظر في بلورته طويلاً فرأى ذلك الحسيس
 ليوناردو ووصفه لي أدقّ وصف . وما أبصره من قبل في حياته .
 المدعي العام (هازناً) : أما وصف لك المكان الذي هو
 فيه ؟

الخطيب (بجدة) : بكل تأكيد . فقد رآه على ظهر
 باخرة . وأكد لي أننا لو استطعنا الحصول على كمنجته ، أو
 على وتر من أوتارها في الأقل ، وحرقناه وبخرنا بهاء بلدخانه
 لانفكّ عنها السحر في الحال وعادت كما كانت بالتمام .
 فتاة : ألا يستطيع « أبو طقة » أن يأتيك بالكمنجة من حيث هي ؟
 الخطيب : سأله عنها فقال إنها على رف في غرفة مظلمة
 من بيت في الجبل . ووصف لي صاحب البيت وصفاً يكاد
 ينطبق على حضرة الأفندي (وأشار إليّ ، فأجفلت) .
 سيدة : ولكن ما أبحرت من مرفأنا ولا باخرة في الأيام
 الخمسة الأخيرة .

الخطيب : لا أدري . ولكنني واثق من كلّ ما قاله
 « أبو طقة » . وواثق من أنني سأكتشف مقرّ ذاك اللعين .

المدعي العام : التحقيق يسير سيراً حسناً . والعدالة ستأخذ
مجراها بحزم وصرامة . وقد تبين لنا حتى الآن أن الرجل ما
يزال ضمن البلاد ، وأنه دخل البلاد بجواز مزور . وهذا وحده
كافٍ للملاحقته ومحاكمته . فكيف وهو سارق فوق ذلك ؟
رجل الدين : يفعل الله ما يشاء .

الوالد : ولماذا شاء أن يتزل بنا مثل هذه النازلة ؟ ما هي
المعاصي التي ارتكبتها ؟

رجل الدين : الله يجرب خائفه . وافتقاد الله رحمة .
الوالدة : ليت يجرب الدين لا يخافونه . وليت رحمته لم تأتنا
في شكل هذه النعمة الهائلة . لكنني ذاهبة قريباً إليه . وسأطلب
منه حساباً عن عذابي . . . اللهم غفرانك .
الوالد : ليستغفر الله الكافرون بالله . أما نحن فأحرى بأن
يستغفروا الله من أن نستغفروه .

عندئذ ما تمالكنا عن الكلام فقلت لصاحبي :
« هذا جبر يا سليم ما عهده فيك من قبل . وهو وحده
كافٍ لأن يجلب عليك فوق ما أنت فيه . »
الوالدة : أجل ، هو جبر يا صديقي . ولكن ماذا تفعل

بقلب الأم ؟ يا ويحه قلباً . فهو يكاد ينفجر . بل إنه منفجر قريباً . وأنا أرى الموت على قيد باع مني . عجل يا موت ، عجل . لا كانت حياة بهاؤها قنام . ولدي ! ليت هذه الغفوة كانت لأجفاني . ربي ، أما تقبلي فدية عنها؟ ولدي ، ولدي ، ولدي !

واستخرطت الأم في البكاء ، وراحت تنبش شعرها وتلطم خديها وتشهق وتزفر . وهنا دخل الطبيب فحياً الحضور مبدياً دهشته لكثرتهم . وأفهمهم بلطف أن وجودهم في غرفة المريضة من شأنه أن يضعفها لا أن يقويها . فهي أحوج ما تكون إلى السكينة . وأنبأ المريضة الجالسة عند آخر السرير لأنها لم تتدارك الأمر . فهزّت بكتفيها كأنها تقول : « وما حيلتي في أناس لهم أنوف ولا يشمون ؟ » ثمّ دنا من الوالدة وأخرجها برفق من الغرفة وهي شبه مشلولة وهو يهون عليها مصابها فلا يهون .

*

ما فرغ البيت من العواد والزوار وذوي الأغراض والمتطفلين إلاّ في ساعة متأخرة من الليل . فلم يبق سوى الخدم والمريضة

وسيدة اسمها وداد عرفت أنها شقيقة صاحب البيت ، وأنها
أرملة تعيش مع ولديها القاصرين في قرية مجاورة للمدينة .
وكان سليم — وقد قال له الطبيب إن حالة امرأته كذلك تدعو
إلى القلق — كمن خولط في عقله . أنا يعبس ، وأنا يبسم .
يتنقل من غرفة إلى غرفة ، ومن كرسي إلى كرسي . يطفىء
الضوء هنا وينيره هناك . يتمتم ويهمهم . يشعل لفافة من التبغ
ويلقيها في المنفضة ثم يشعل غيرها . وأخيراً انصرف إلى حيث
لا أعرف . وكأنه ما كان يشعر بوجودي ووجود شقيقته التي
دنت مني بلطف واحتشام ومدت يدها مصافحة وقائلة :

« ما هي المرة الأولى أضافحك فيها ، وإن تكن يدانا ما
تلاستا من قبل . » قالت ذلك بصوت فيه من الرقة والالطف
والعلوية مثل ما في وجهها من الأنس والصدق والوداعة .
وبذاك جعلتني أشعر كما لو كنت في الواقع أعرفها من زمان .
فأجبتها بدون أدنى تكلف :

« هذه مفاجأة حلوة حقاً . فقد كان من الواجب أن
أعرفك منذ عرفت أخاك سليماً . ولكنه — وذلك من الغرابة
بمكان — ما فاه لي يوماً بكلمة عنك . بل حملني على الظنّ

أنه وحيد . »

فابتسمت ابتسامة ذات معنى وقالت وفي صوتها بعض الغصة :
« لا تعجب . فسلیم ینجل من أن یعترف بی شقیقة له
أمام الناس . وكذلك نور الهدى - زوجه . فهي تخجل بی
أكثر منه . ولولا محنة هما فیها الیوم ، ولولا محبتي لبهاء ،
لما رأیني هنا . »

« لا أفهم . أهو خلاف علی إرث أم ماذا ؟ »
« لا شيء من ذلك . فقد تنازلت له عن حصتي فی الإرث
- وهي لا یُستهان بها - من تلقاء نفسي . لكنه حتى علیّ
وأُنكرني لأتني تزوّجتُ ، رغم إرادته ، من شاب إیطالي فقیر
كان یعلم البیانو . وقد كنتُ سعيده فی زواجي . ثم مات
زوجي من عشر سنوات تاركاً لی طفلین - صبیّاً وابنة -
والبیانو ومهنة تعلیم البیانو . وها نحن - أنا وولداي - من
نعمة الله بألف خیر . »

« أَلذاك وحده أنكرك سلیم ؟ أمرٌ لا أكاد أصدقه . »
« لذلك ولأنّه یعتمدني غریبة الأطوار ، وإن شئت فقلُّ
«مehزوزة». وبعد سكتة قصيرة «ولعلك من بعد حديثي معك ،

ستوافقه في ما يعتقد . »

« معاذ الله . أنا أحبّ غربي الأطوار . »

« ولأنني آتستُ ذلك فيك ما ترددتُ في « طرح شري »

عليك . » ومشت إلى زاوية فيها مقعدان وثيران ودعتني إلى
الجلوس فجلسنا . وكان ينير الزاوية قنديل كبير من الكهرباء
مغطى بغطاء من الحرير اللازوردي المبطن بحرير ذهبي ، وقد
قام على عمود عالٍ من الآبنوس ، فبدا كل ما حواليه في نصف
عتمة أو في ما يشبه الغسق . وما إن جلسنا حتى بادرني
بسؤالها :

« أبعينيك نعاس ؟ »

« النعاس بعيد جدّاً عن أجفاني وعن أفكاري . »

« إذن لا بأس لو تسامرنا قليلاً . أتؤمن بالخوارق ؟ بما

ينخرق ثم يحتاج ما ندعوه خطأ حدود الطبيعة — كأنّ
للطبيعة حدوداً ؟ »

« كثير هم الذين يدعون معرفة الحدّ الفاصل ما بين

الممكن والمستحيل . أما أنا فأقول أن لا حدّ بينهما سوى ما

يقيمه الجهل والقصور . »

« أحسنت، أحسنت. وإذن فما رأيك في ما حدث لبهاء ؟ »
« صدقيني إنني ما كوّنتُ رأياً بعد . ما رأيك أنتِ ؟ »
« رأيي أن بهاء ليست من هذا العالم . وأخي وزوجه
وباقى الناس يأبون إلا أن يروا فيها أنثى كسائر الإناث .
لذلك عقدوا خطبتها على هذه المومياء الثرثرة المحنطة بالأناقة
والطيوب والتي اسمها فؤاد الفهداوي . بحقك هل رأيت أم
سمعت بلادة كبلادته أو بلاهة كبلاهته ؟ »

« دعينا منه . ولنعد إلى بهاء . »

« بهاء تأبى التدنّس به أو بسواه . »

« وليوناردو . أما تظنّين أنها أحبت ليوناردو ؟ »

« ليوناردو كذلك ليس من هذا العالم . هو فلتة من

فلتات الزمان . أرايته ؟ أسمعته ؟ »

« نعم رأيتّه وسمعتّه . »

« ألا توافقني في ما قلته عنه ؟ »

« رجل حساس وموهوب — نعم . رجل أمين وصادق —

نعم . أما أن يكون ملاكاً أو من طينة غير طينة للبشر —

عفوك ! ذاك ما لا يطاوعني لساني على النطق به . »

« ليتك عرفته مقدار معرفتي له . إذن لما ترددّ لسانك قط . »

« أوتعرفينه من زمان ؟ »

« منذ كان يافعاً . وأعرف تاريخ حياته منذ طفولته .

فقد جاءت به أم زوجي — قبل أن تكون حماة لي وقبل أن يكون زوجي زوجي . جاءت به لقيطاً من المقبرة . وكانت أرملة . فربي مع وحيدها — زوجي — الذي كان أكبر منه بعشر سنوات . وعندما أتقن زوجي البيانو وانصرف إلى تعليم الموسيقى أدهشه أن يرى ليوناردو قد فاته بمراحل . فقد كان يقول لي : ليوناردو سيكون له شأن عظيم . ومات زوجي فاختنى ليوناردو . فما عدت أعرف عنه شيئاً . وإذا بي ، بعد سنوات ، أسمع بأنه يلعب في فندق أخي . فلا أحاول الاتصال به ، لأنّه ، لسبب أجهله ، ما أحبّ أن يتصل بي من تلقاء نفسه . ثمّ أسمعُ بما كان من شأنه وشأن بهاء . فلا أعجب ولا أستغرب . »

« أيعرف أحد سواك هذه المعلومات عن ليوناردو ؟ »

« لا أحد . »

« ولماذا لا تبوحين بها للمدعي العام ؟ »

« المدعي العام ؟ وماذا يفهم المدعي العام أو غيره من هذه الأمور ؟ فهو لا يهمه من ليوناردو سوى تذكرة الهوية . والمسكين لا تذكرة لديه . وأخشى ، إذا ما حظي به المدعي العام ، أن يدفنه حياً في السجن . لا . ما بحث ولن أبوح بهذه الأمور لغيرك . وأرجو أن تحفظها في سرّك . »

« وما الحكمة في التكمّ ، لا سيما إذا كان فيه ما يضرّ بقضية الاثنين ليوناردو وبهاء ؟ »

« لا بدّ من التكمّ حفظاً لكرامة الاثنين . إذ أتى للناس أن يفهموا أن بهاء وليوناردو قد انتقلا ؟ »
« انتقلا ؟ »

« نعم . نعم . انتقلا إلى العالم المعدّ لهما من زمان . »
« لا أفهم . »

« ومثلك يجب أن يفهم . انتقلا بروحيهما من الأرض إلى السماء . وقد أبصرتهما بعينيّ هاتين الخاطئتين . أبصرتهما الليلة البارحة وأنا جالسة وحدي في بيتي ، وقد نام ولداي . أبصرتهما يتعانقان وقد التفّأ بوشاح واحد نوراني . ثم أبصرتهما يرتفعان عن الأرض رويداً رويداً ، كما يرتفع عمود من البخور في الهيكل . »

وكانت السماء محجبة بحجاب من السحب الحائرة ما بين لون الثلج والرماد . وإذا بكوة تنفتح في وسطها . وإذا بليوناردو وبهاء الموشحين بالنور. يدخلان تلك الكوة ، فتتعلق على الأثر وتعود السماء حجاباً واحداً من الثلج والرماد . »

لقد كانت جليستي تمثل حديثها تمثيلاً كأنها على مسرح . فأتأت ترفع صوتها ، وآونة تخفضه حتى الهمس . وتبسط ذراعيها ثم تضمتها ، وتصور يديها شكل العمود النوراني والكوة المفتوحة في السماء ، وترفع عينيها إلى فوق . فما بلغت نهاية حديثها حتى كانت قد انتصبت واقفة ، ويدها مرفوعتان إلى أعلى ، وعيناها شاخصتان إلى السقف ، وفمها مفتوح فتحة الدهشة والأخذة والخشوع ، وشعرها الأشقر المتماوج مسدول حتى الكتفين ، والمصباح يرسم على وجهها الشاحب وقامتها المديدة المغلفة بثوب برتقالي خيالات غريبة من النور الهادئ المكبوت ، والظلّ الحالم الهائى .

« ما هذا ، ما هذا ؟ أمساخر في مقبرة ؟ لا بارك الله فيك يا وداد . فلا حرمة عندك حتى للمقابر . أما تعرفين أن بيتي قد استحال قبراً ؟ وما ذنب هذا الرجل حتى تحرميه النوم ؟ عذرك

يا صاحبي ، ولا تعتب عليها. أما أنا فبشفقتك أولى مني بعتبك.
لقد ضاع عقلي . لا تلمني . «
لم أعلم كيف دخل علينا سليم من غير أن ننتبه له . ورحت
أخشى اصطداماً بينه وبين شقيقته. إلا أنها لم تفه بكلمة واحدة.
وتقدم مني سليم ، وهو يكثر من الاعتذار ، وأخذني بيدي
وقادني إلى الغرفة المعدة لنومي. فالتفت إلى السيدة التي ما يرحت
واقفة في الزاوية وقلت بكل احترام وإخلاص :
« تصبحين على خير يا ستّ وداد . »

ولدي العنّازي

أخذ الصّيف يطوي بساطه الرّحب، والحال في بيت الكرام
تتلرّج من سيّء إلى أسوأ . فبهاء في غيوبتها المحيرة تنوب
ذوبان الحلم الجميل في غمغمات النهار، وأمها على قيد أنملة من
الموت، وأبوها يتداعى جسمه الجبار يوماً بعد يوم، ولا يذكى
الحياة فيه إلا شوقه المحرق إلى الانتقام من ليوناردو، وليوناردو
ما تمكّن أحدٌ من أن يقف له على أثر . فقد ذهبت مساعي
المدعي العام ورجاله، من هذا القبيل؛ أدراج الرياح، وأنا أتنقل
بين البحر والجبل وكأنّني فقدت صداقة الاثنين . فلا البحر يفتح
لي قلبه ، ولا الجبل يشّ لي كسابق عهدي بهما .
وكان يوم حاصرني فيه جمهرة من الأفكار النقاّة، النعابة.
لا سيما وقد بلغني أن السيدة نور الهدى تعالج آخر سكراتها



الأرضية ، ولم يكن في مستطاعي النزول إلى المدينة قبل صباح اليوم الثاني . وعندما ضقت ذرعاً بأفكاري حملتها إلى قعر وادي سحيق الغور يدعوه أهل الجوار وادي العناري . وهو وادي له الكثير من بيض الأيادي عليّ . فما نزلته مرةً ضيق الصدر ، غائم الفكر ، إلا عدت منه وصدري كالفضاء رحابة ، وفكري كحدقة النسر صفاء .

أخلد رهيب بعمقه ، رائع بجلال الصخور الشاهقة القائمة عن جانبيه ، وقد نحتت فيها العناصر من غريب الأشكال وطريفها ما ليس يستوعبه نظر أو خيال ، وغرست في شقوقها أصنافاً كثيرة من الأشجار والأعشاب البرية فبدت كأنها البساتين المعلقة في الهواء . أما قاعه فيكاد يكون صفيحة واحدة من الصخر الأغبر الصلد وقد صقلتها سيول الخريف والمياه المتدفقة من الثلوج في الربيع ، وحفرت فيها أجراءناً متفاوتة العمق والهندسة ، منها جرن واحد يبلغ قطره الذراعين وعمقه الذراع ويبقى مترعاً بالماء الزلال البارد طيلة أيام الصيف ، فلا يفيض ولا ينقص ، في حين يحف كل جرن سواه . وأهل الجوار يعتقدون أن فيه عين ماء عجائية يدعونها « عين الدموع » — ذاك بالاختصار

هو وادي العذارى .

انحدرت إليه في ذلك اليوم بُعيد أن أخذت الشمس تنحدر
من السمّت نحو البحر . وكان الحرّ ما يزال قويّاً ، والصخور
الملساء التي رحت أقفز منها أو أنزلق عنها ما برحت وجناتها
متوهجة بقبيلات الشمس . وما زلت أقفز من صخر إلى صخر
وأنزلق عن حافة جرن إلى حافة جرن حتى بلغت الجرن الذي
فيه « عين الدموع » . وكان على حافته عصفورتان تستحمان .
فروّعهما خيالي ، وبسرعة البرق اختفتا عن ناظري بين حنايا
الصخور .

ألقيتُ الجرن ، كما عهدته ، طافحاً بالماء النмир ، وألقيتُ
جوانبه مفروشة بالرمال الحريرية والحصى الصقيلة المتروحة
حجماً ما بين حبة العدس والحوزة ، وقد تجمل بعضها بعروق
ملونة فبان كأنه من الحجارة الكريمة ، وتزيّناً بعضها بأزياء
غريبة الشكل ، دقيقة الصنع إلى حدّ يفوق الوصف والتصور .
جلستُ ، كعادتي ، على الرمل وأخذت أذريه بيد ، وأجمع
بالأخرى الحصى فأقبض منها قبضة ومن بعد أن أفركها في قبضتي
ألقيتها واحدة واحدة فأسمع طقاتها إذ تقع بعضها على بعض .

وأطرب لها كما لو كانت موسيقى ملائكية . وعندما أملّ ذلك أروح أجمع الرمل كوماً كوماً وأرتب عليها الحصى مثلثات ودوائر ومربعات ، أو أشكالا لا تعرف هندسة معلومة ولا قياساً مألوفاً . ثم أعود فأنتقي الرمل من الحصى ، وأبسّطه بكفي ، وأشرع أرسم فيه بسبائتي رسوماً لا تخضع لنظام ، أو أكتب كلمات لا يربطها معنى . ثم أنصرف عن الرمل والحصى إلى الماء في الجرن فأغمس فيه طرف عصاي وأنطلق أحركه حركات خفيفة وعينايتي تتبعان الدوائر السحرية المترسمة على وجهه ، والدردور اللطيف المكون عند آخر العصا .

كان ظلّ الصخور من خلفي قد غمر من الجرن أكثر من نصفه فانعكست على صفحة الماء خيالات عجيبة ، فتاة . وكان الظل ناعم الملمس ، نديّ النفس ، يلف سكينه مخملية ترهف الحسّ إلى درجة لا تُطاق . فلقد خيّل إليّ أنّي أسمع زحفه الرقيق، الوثيد على صفحة الماء وعلى ضلوع الصخور والأشجار والأعشاب . مثلما خيّل إليّ أنّ التسائم البليلة التي كانت تدغدغ أجناني لم تكن غير هدير مياه زاخرة متدفقة من الجبل إلى الوادي وجارفة كل شيء في سبيلها إلى البحر .

وأنا كذلك وإذا بشيء كأنه الحجر ينقض من عل ويضرب
صفحة الماء في الجرن أمامي فتطير منه قطرات في كل جانب
أتفرد منها بنصيب كبير . وإذا بذلك الشيء حجل كبير ،
جميل ، وإذا بالماء في الجرن قد امتشج بحمرة الدم .
التقطتُ الحجل فألفيته ما يزال حياً وقد انخلع أحد جناحيه ،
وساح الدم من صدره ، وانكسرت رجلاه فوق الأظافر وما
ترالان معلقين بالجلد لا غير . فأنحنيت على الطائر الجريح
أدلك بيدي رأسه الجميل وأجففتُ الريش على ظهره وصدره
المبللين بالماء والدم ، وهو ، على ما به من عجز وألم ، يحاول
أن يفلت من يدي ، جاهلاً أن نشوة امتطاء الهواء ، وعنجهية
القفز من صخر إلى صخر ، ولذة الدرج الخاطف على التراب
قد أفلتت كلها منه ، وأن الحياة ستفلت من بين أضلاعه في
دقائق معدودة .

« يا هو - و - و ! » - نداء قريب أجشّ دوى له
الوادي . فالتفت وإذا على قمة صخر باسق قبالي عملاق متكئ
على بندقية وقد امتدّ ظلّه على الصخر مسافة بعيدة ، وعندما أيقن
أنّ نداءه قد استرعى انتباهي عاد فرماني من علوه بسؤال عمن

غساني أكون وعما إذا كنت قد رأيت حجلًا وقع بالقرب مني . فرفعت الحجل بيدي ولوحت له به . وفي الحال اختفى عن ناظري ليعود بعد دقائق فيظهر بجاني .

لم يكن الرجل غير ناطور المنطقة . وبينني وبينه معرفة قديمة وصداقة خالصة . فهو ، على خشونة مظهره ، قد جمع إلى قوة البدن وجمال الصورة نعومة البساطة ونقاوة الفطرة مع الكثير من عزّة النفس والبديهة النيرة . حتى ليصحّ فيه القول إنه من الذين يستساغ شربهم مع الماء العكر . وهو أمهر صياد في الناحية على الإطلاق. وله حكايات كثيرة وطريفة عن مواقفه مع الوحوش والطيور والاصوص ، وقد خسر في معركة مع دب ثلاثاً من أصابع يده اليسرى — الابهام والسبابة والوسطى ، ولكنه في النهاية قتل الدبّ ونجا بحياته . أمّا كنيته فأبو منصور .

جلس أبو منصور بالقرب مني على حافة «عين الدموع» ، ومن بعد أن سلم كثيراً واعتذر كثيراً عن ندائه لي «يا هو» وقصّ عليّ حكاية الحجل الجريح ومطارده له نحو الساعتين ، بسط كفيه على حافة الجرن وانحنى فوقه وراح يعبّ من الماء

عبّ من كاد العطش يودي بأنفاسه . وعندما استوى جالساً مسح
فمه وشاربيه بيده ثمّ تنفس الصّعداء وربّت صدره ثلاثاً وقال :
« خَيّ ! هذا ماء يُشْرَب . لقد صدق الذين دعوا هذه
العين عين الدموع . فماؤها أصفى من الدموع . ولكنها دموع
لا ملح فيها . فهي من الجنة . »

قلتُ وبني شيء من الحجل الجاهلي ما كان من واجبي أن
أعرفه كواحد من أبناء تلك الناحية :
« أتعرف يا أبا منصور لماذا دعيت هذه العين عين الدموع
وهذا الوادي وادي العذارى ؟ »

فأجابني بكثير من الدهشة : « أتجهل ذلك وأنت من عشاق
هذا الوادي ، وأنت العليم بأشياء كثيرة نجهلها نحن البسطاء ؟
إذاً سأقصّ عليك ما ليس يجهله عندنا غيرك . — وناولته
لفاقة وأشعلتها له ، وأشعلتُ أخرى لي ، ورحت أصغي
لحكايته :

« يحكى أن أميراً عظيماً كان يقطن هذه الناحية في قديم
الزمان . وكان له ثلاث بنات ما رأت عين أجمل منهنّ خلقاً
ولا أكمل خلقاً . وكان طلاب الزواج يتقاطرون عليهنّ من

كل صوب فما يجد أحدهم حظوة في عيونهن . والأمير شغوف
ببناته إلى حدّ العبادة فما يطاوعه قلبه على تقييد حريتهن في
أمر من الأمور .

« وكان للأمير راعٍ شاب يرعى أغنامه . وكان الراعي
على جانب عظيم من الجمال وقد أنقن النفخ في الشبابة (ناي
من قصب) إلى درجة بلغت حدود السحر الحلال . وكان
أن بنات الأمير رأين ذلك الراعي وسمعن شبابه فأنجذبن إليه
ووقعن في حبه ، إلا أن كلّ واحدة منهنّ كانت تكتم حبها
عن شقيقتها وعن الراعي ، والثلاث كنّ يكتمنه عن الأمير .
أما الراعي فما عرف أحد أنّه نظر يوماً إلى إحداهنّ غير نظرة
احتشام أو أنّه كلم مرة إحداهنّ بكلمة .

« وكان الراعي يسرح أغنامه في هذه الجهات ويكثر من
التردد إلى هذا الوادي . وذات يوم ، وقد برح الشوق بالشقيقات ،
استأذنت الصّغرى أباهما بالخروج إلى التزهة وحدها فأذن لها .
وبعد قليل فعلت الوسطى كذلك . ثمّ بعد قليل فعلت الكبرى
ما فعلته شقيقتها . فقد راح قلب الواحدة منهنّ ينيها بأن
عند شقيقتها مثلما عندها من الوله بالراعي ، وراحت كلّ

واحدة تخشى من أن تسبقها الأخرى إلى اكتسابه والاستئثار
بجبه .

« ولشد ما كانت دهشة الشقيقات الثلاث ونجملهن الواحدة
من الأخرى عندما وجدن أنفسهن في قعر هذا الوادي ، وعلى
حافة هذا البحر ، كأنهن كنّ على موعد . أما الراعي فما
حظين به . إذ ذاك تفجرت قلوبهن دموعاً من مآقيهن . وبقين
يسكين ويسكين إلى أن امتلأ هذا البحر وما برح ملآن ،
لا يزيد ولا ينقص ولا يأسن ، من ذلك اليوم .

« وأخيراً أقبل الراعي بشبابته وليس من يدري ماذا كان
من بعد . فالشقيقات ما عدن إلى البيت ، والراعي اختفت آثاره ،
والنفتيش الدقيق ، الطويل ، ما بلغ نتيجة قط . والأمير قضى
بحسرتة على بناته بعد سنين ، فانقرضت سلالة وتبعثر ملكه .
وهكذا أطلق الناس على هذا الوادي اسم « وادي العذارى »
وعلى هذه العين اسم « عين الدموع » .

قلت وقد راقنتي الأسطورة : « كيف يمكن أربعة من الناس
أن ينحسروا بمثل تلك السهولة يا أبا منصور فلا يُعثر لهم على أثر
لا في هذه البقعة ولا في غيرها من الأرض ؟ »

« فاني أن أخبرك ما يروونه عن تلك المغارة التي في الصخر من خلفك . فقد وجدوا فيها ، على ذمة الرواة ، وبعد أجيال مضت على موت الأمير ، ثلاثة هياكل بشرية يقال إنها ما كانت غير هياكل العذارى الثلاث . أما أنا فلا أنفي الرواية ولا أثبتها . والأمر الجدير بالذكر — وقد تضحك مني — هو أنني أسمع في بعض الأيام صوت شبابة في هذا الوادي وأسمع أصوات نسوة باكيات . ولكنني ما أبصرت حتى الآن نافخ الشبابة ولا النسوة الباقيات . وهناك من يؤكدون أنهم أبصروا غير مرة ، لا سيما في ضوء القمر ، ثلاث صبايا في ثياب بيض يمشين في أثر شاب ينفخ في شبابة . ولك أن تصدق أو أن لا تصدق . »

« وهذه المغارة ، يا أبا منصور ، أما دخلتها في حياتك قط ؟ إنني أكاد أرى الوصول إليها مستحيلاً : — وأدركت وجهي إلى المغارة في الصخر الذي ورائي . وكانت فوهتها المستديرة تعلو عن القعر نحو الأربعة من الأذرع ويبلغ قطرها نحو النراع لا غير . والصخر من تحتها يكاد يشبه مقدمة باخرة ، وقد ظهرت فيه بعض التوائء والشقوق ، منها واحد تحت مدخل المغارة

نبتت فيه بطمة قوية تكاد أغصانها تحجب المغارة. قال أبو منصور :
 « دخلتها مراراً . أما تسلق الصخر من تحتها فلا يخلو من
 المغارة . لكنه لا يستحيل على جبليّ مثلك . وهل العيش ،
 يا صاحبي ، إلا مغامرة دائمة ؟ »

بعد قليل ودّعني أبو منصور . وكدت أخسر صداقته عندما
 رفضت قبول الحجل الجريح هدية منه قائلاً إنّي أؤثر التمتع
 بمنظر الحجل دارجاً على الصخور ، وبكرّات صوته مناجياً خليلته
 مع الفجر وبعد الغروب ، على التمتع به جيفة محشوة بالألم أحشو
 بها جانباً من جوفي . فقد اشمّ في قولي تأنيباً له ، وإن لطيفاً ،
 واستخفافاً بشهرته كصياد ، وتجديفاً على الله الذي حلّل للإنسان
 قتل بعض الطير والحيوان والاستمتاع بلحومها .

ما كاد وقع خطوات الناطور يموت في أذني ، وقامته المديدة
 تحتجب عن ناظريّ ، حتى رحت أرسم خطة للوصول إلى المغارة .
 فأنا أحجم وأنا أقدم . وأخيراً تغلّبتُ على المخاوف ورحتُ
 أتسلق . أما قال أبو منصور إن الحياة مغامرة دائمة ؟

لقد نجحت مغامرتي وكانت نتيجةها فوق ما كنتُ أتصور
 بكثير . فما دخلت المغارة حتى وجدني في بهو فسيح مستدير

قبتة وجدرانه من الصخر الصلد وكذلك أرضه . فيه رفايرف
وأفاريز وشبه تماثيل غريبة الأشكال . فكأنه منحوت بالمطرقة
والإزميل . ولكن لا أثر فيه ليد الإنسان على الإطلاق .
والذي أدهشني فيه قبل كل شيء ، ثعلبان منطرحان على الأرض
وقد تمدّ أحدهما بطوله واضعاً رأسه بين ذراعيه ، والتفّ الآخر
على ذاته ساتراً خطمه بكلمات يديه .

وقفتُ جانباً لأفسح للثعلبين مجالاً للهرب . فما خامرتني ريبة
قطّ في أنهما كانا نائمين لا غير . فكل ما في منظرهما كان يدلّ
على ذلك . إلا أنني عجبت أشدّ العجب لهما كيف لم يستيقظا على
الحركات الكثيرة التي بدرت مني إبان تسلي المغارة وبعد
دخولها . ولكنهما ما كانا ليستيقظا . إذ ذاك أيقنت أنني كنت
على خطأ في ما اعتقدته من نومهما . ودنوت منهما لأتبيّن من
أنهما ثعلبان سويان لا خيالان . فألفيتهما يتنفّسان تنفّساً مترنّاً
هنيئاً ، فهما من العافية والسلامة على أحسن ما يمكن لثعلبين
أن يكونا . حاولتُ أن أوقظ الواحد ، ثم الآخر ، بيدي .
فما استيقظ لا هذا ولا ذاك . وحانت مني التفاتة إلى رف من
رفوف المغارة فأبصرتُ عليه قصبة مستطيلة . وإذا تفقّدتها

وجدتها شابة .

عندئذ شعرت بما يشبه ديب النمل في جسدي ، ثم شعرت
 كأنّ عيوناً كثيرة لا أبصرها تحملني بي من كل جانب من
 جوانب المغارة . فما عرفت كيف خرجتُ منها وكيف بلغت
 الأرض . وكان الظلّ في الوادي قد تكاثف والنور على القمم
 يتلاشى . فاقتربت من عين الدموع وحفنت من مائها حفنة
 بللتُ بها جفاف حلقي . ثم أخرى طرحتها على وجهي . وعدت
 أدراجي أجرّ ورائي ألف فكر وألف خيال .

شَهْلَبَتُّ وَمَهْلَبَتُّ

بعد أيام عدتُ إلى وادي العذارى وبني من الشوق إليه
أكثر مما شعرت به في أي وقت سابق من حياتي . فقد كان
ما شهدته وسمعته في مأتم السيدة نور الهدى ما يزال ملء مسامعي
وأجفاني من حزن ساحق ، وتفجع مذيّب ، ولوعة نهاشة
يواكبها الرياء ، والتدجيل ، والتشفي ، والشماعة ، والدموع
الكاذبة وقد تردّت كلها بأثواب الحداد الضاحك ، الهازيء ،
اللامبالي .

مجد يتقوض ، وعزّ يذلّ ، وغنى يغدو أفقر من الفقر ،
وسعادة تكشر عن أنياب تعاسة ، ومروج من الآمال الخضر
تتحول صحاري مقفرة من كل أمل وحياة ، وملفوحة بريح
الأس والموت لا غير . ذاك هو بيت سليم الكرام كما تراءى لي

في ذلك المآثم الرهيب . ولكم آلمي أن أبصرَ عميدَ البيت
وصديقي وقد تحجرت مقلته فلا يكاد يرفّ له جفن ، وتكلّب
فكّاه فلا ينبس بكلمة ، وهربت نضرة الحياة من وجهه
فتركته بلون الشمع ؛ أجل ، لكم آلمي أن أرى ذلك الرجل
الجبار الذي كان يفيض عافية ومرحاً وغبطة بالحياة يتحرك بين
الجماهير حركات ميكانيكية لا حياة فيها ، وألا يكون في
مستطاعي أن أردّ إليه ولو بارقة ضئيلة من الأمل .

لقد كنتُ أعرف أنه لو صحّ لي إنعاش أمله الذاوي بشفاء
ابنته لتحمل مصابه بفقد زوجه بالصبر ، ولعاد إليه الكثير من
نشاطه وحبّه للحياة . ولكن من أين لي ذلك وبهاء تكاد تكون
جثة هامدة لولا أنفاس بطيئة ما تبرح تجول في صدرها صعوداً
ونزولاً ؟ أأجاريه وأجاري خطيب بهاء في إيمانها بما قاله الشيخ
« أبو طقه » من أن بهاء مسحورة وأن السحر لا ينفلك عنها إلا
بمحرّق كمنجّة ليوناردو أو وتر من أوتارها ؟ أأبوح له بالكمنجة
وبما كان بيني وبين ليوناردو بشأنها ؟ ولكن في داخلي أصواتاً
تهزأ بي إن أنا تدهورتُ بأفكاري إلى مستوى أفكار فؤاد الفهداوي
وشعوذات أبي طقه . ومن ثمّ فبينني وبين ليوناردو عهد بالألّة

أبوح لأحد بما كان من أمر زيارته لي وبأن أحافظ على كنجته
محافظتي على حذقة عيني ، وبأن أحرقها وأدفن رمادها بين
جنور صنوبرية منفردة إن هو لم يرجع بعد عامين . فكيف
أنكث عهدي وأعبت بأمانة في عنقي ؟ إلا إذا كان « أبو طقه »
مالكاً مفتاح أسرار ما تزال مغلقة عليّ . ومن يدري ؟ أما
قال إن الكمنجة على رفّ في بيت في الجبل ، وإن صاحب
البيت يشبهني كل الشبه ؟ وإذ ذاك فإنقاذ حياة بل حياتين ، من
الموت ، لأقدّس من صيانة عهد لرجل ميت الوجدان
كليوناردو ، إن صحّ أنّه ساحر .

ولكن ليوناردو لإنسان طاهر إلى أقصى درجات الطهارة
البشرية . ذاك ما أحسه في أعماق قرارات نفسي . فهل يكون
« أبو طقه » أصدق حسّاً مني ؟ وليوناردو — لماذا اختفى ،
وأيّن هو ، وهل من الممكن أنّه لا يعرف ما خلف وراءه
من نكبات وأوجاع ؟

جلست ، كعادتي ، على حافة عين الدموع ، ووجهي ، هذه
المرة ، نحو المغارة . ثم رحّ ألب بالرمّل والحصى وعيناي
بين الفينة والفينة تتسلقان الصخر إلى المغارة وأفكاري تشرّد

إلى الثعلبين والشبابة . فتحفزني حوافز على الصعود وتردعني
عنه روادع ، لخوف السقوط وخوف المجهول نصيب منها
كبير .

بقيت كذلك برهة من الزمن ما دريت بعدها إلا ويدي
تلمسان الشقوق والنوائء في الصخر المؤدي إلى المغارة ، ثمّ
تقبضان على جذع من جذوع البطمة ، وقلبي يركض في صدري
قارعاً أضلاعه قرع الوجل من خطر محقق ينتهي بمجذل
السلامة .

وقفت هنيهة في مدخل المغارة ريثما يكفّ قلبي عن القرع
ويعتدل النفس في صدري . وكانت شرذمة من أشعة الشمس
قد سبقتني إليها من خلال أوراق البطمة فانتثرت على أرضها
بقعاً من النور تتخللها بقع مماثلة من الظلّ ، والنور والظلّ
في رقصة عجيبة ، أخاذة موقّعة على رقصة أوراق البطمة
لدغدغات النسيم .

ورحت أقفل عينيّ في جوانب المغارة لعلني أبصر الثعلبين
فما وقعتُ لهما على أثر . إلا أنتي أبصرت الشبابة لمقاة على
الأرض ، وعلى خطوتين منها كومة من الثياب ، أو ما يشبه

كومة من الثياب . وعندما اقتربت منها لأنفقدها وجدتها رجلاً
نائماً وقد طوى ركبتيه حتى التصق عقباه باليتيه ، وتوسد
ساعده الأيمن سائراً بمرقه معظم وجهه وعينه ، وباسطاً ذراعه
اليسرى على جنبه في شكل زاوية حتى لامست كفه ركبتيه .
وكان يغطّ غطيظاً خافتاً هادئاً موزوناً .

وقفت وبني من الدهشة والحيرة ما بي . فما أدري أوقف
الرجل ، أم أصبر حتى يستفيق ، أم أتركه وشأنه وأعود من
حيث أتيت . فقد يكون لصاً اتخذ من هذه المغارة المنيعه مأوى
ونخباً له . بل الأرجح أنه لص . وإلا فما معنى وجوده في
مثل ذلك الوادي السحيق ، وفي مثل تلك المغارة التي تكاد
تتمنع على الأقدام والأبصار كذلك ؟ ولكن ليس في المغارة ما
يدلّ أقلّ دلالة على اللصوصية . فلا متاع منهوب ، ولا بندقية ،
ولا أيّ نوع من السلاح ، حتى ولا عصا . ليس إلا الشبابة
لا غير .

وأنا في مثل تلك الأفكار تملل الرجل في نومه وانقلب من
جنب إلى جنب . فبان وجهه الذي كان مستوراً عن عيني .
والحال صحت بأعلى صوتي :

« ليوناردو ! »

انفض النائم ، واستوى جالساً ، ثم فرك عينيه بيديه
وحملق بي طويلاً وقال على مهل من غير أن تبدو على وجهه
أقلّ أمارات الدهشة :

« لله درك من شرطيّ سرّي ! »

« بل لله درك من هارب عبقرى ! فمنّ هداك إلى هذا
الوادي وهذه المغارة ؟ »

« بل منّ هداك أنت ؟ »

« أنا ربيب هذه الجبال ، وقد عشقت وادي العذارى وعين
الدموع من زمان . مع ذلك ما عرفت هذه المغارة ولا
دخلتها غير مرة قبل الآن . وذلك منذ أيام لا غير . »
« أما أنا فقد عرفت الوادي والعين والمغارة قبل أن
تعرفها بأجيال . »

« بأجيال ! »

« أجل ، بأجيال . »

« وأنتَ دون الثلاثين وأنا فوق الخمسين ؟ »

« ما أعلم أينما الأسنّ ، وأعلم أنّي أعتق منك صلة بهذا

الوادي . فما لقيتك مرة فيه أيام كنت أنفخ في شبابي وأسرح
مع أغنامي في هذه الجهات . «
« ما قال لي أحد من الذين يعرفونك حق المعرفة إنك
كنت راعي غنم في حياتك . «
« لا ما رعيت غنماً في هذه الفترة من حياتي . «
« وأية فترة تعني ؟ «
« أعني منذ أن وُلدت . «
« إذن في أية فترة من حياتك رعيت الغنم ؟ «
« قبل أن ولدت . «
« عدنا إلى الألباز والأحاجي يا ليوناردو ؟ قل لي من
أنت ؟ ألسن من يقول عارفوك إنك أنت ؟ . . «
« ومن هم الذين يعرفون من أنا ؟ «
« السيدة وداد — مثلاً . «
« آ . السيدة وداد ؟ لقد قالت لك إن حماها التقطني
طفلاً مهملاً في مقبرة . بارك الله في خيالها الحصب وروحها
الجمعوح . وأين التقيتها ؟ «
« التقيتها في بيت شقيقها السيد سليم الكرام . «

« ألعله رضي عنها من بعد أن أنكرها كل هذه السنين ؟ »
« لا أدري . ولكنها جاءت لعيادة بهاء . واتفق وجودي
هناك للغاية عينها . فتعارفنا . »

« بهاء . . . وماذا حلّ ببهاء ؟ »
« كأنك تجهل ما حلّ ببهاء وبأبي بهاء وبأمّ بهاء . لقد
خربت ييتهم إلى الأبد . فبهاء في غيبوبة منذ ليلة خطبتها ،
وهي تتلاشى يوماً بعد يوم . ووالدها يعدو سراعاً إلى القبر .
والتراب على ضريح والدتها ما يزال رطباً . »
« ماتت ؟ »

« نعم . ماتت السيدة نور الهدى من عظم حرقها على
ابنتها . وأنت وحدك المطالب بموتها . »
« أنا ؟ ومن أنا لأسلب حياة ما أعطيتها ؟ »
« ما سلبتها مباشرة . ولكنك بسحرك لبهاء سببت لأمها
الموت . مثلما ستسببه لوالدها من غير شك . »
« أهذا قولك أم قول الناس ؟ »
« هو قول الكثير من الناس . وقد أصبحت ميّالاً إلى
الأخذ به . »

« لقد كنت أعتقد أنك فوق الناس، أتدري أينما الساحر
وأينما المسحور ؟ هناك ساحر واحد يا صاحبي هو الحياة .
أما الناس فكلهم مسحور ، وأنا في جملتهم . ولكنني مسحور
بما لم يُسحر به أحد من الناس بعد . »
« اعلم أنك متهم ، علاوة على السحر ، بالسرقة والتزوير .
فالكرام يدّعي أنك سرقت كمية من ماله ، والشرطة أنك
دخلت البلاد بجواز مزور ، والقضاء يفتش عنك بكل ما لديه
من الوسائل ليأخذ العدل نصيبه منك . »
« حقاً إنني في واد والناس في واد . ألعنتي عشت ما
عشت من السنين وما عوقبت أو كوفت بشيء من غير أن
أمثل يوماً أمام قضاء الناس ؟ فما بال قضاء الناس يرضى بما
قضي لي أو عليّ حتى الآن بدون أقلّ تدخل منه ، وبأبى
اليوم إلا أن يقحم ذاته في مجاري حياتي ، وإلا أن يقيم
من ذاته قاضياً على القضاء ؟ أيطنّني رشوتُ القضاء فعطلتُ
عدله ، أم يظنّ القضاء قد نامَ عنيّ فهربتُ منه ؟ وهل لحيّ
أن يهرب من قضاء حياته ؟ ومن ثمّ فالذي أعطاني جواز
الوجود والتمتع بالأرض والسماء أتظنّه بخل عليّ بالجواز لدخول

« هذا البلد ؟ »

« ما دمتَ بريئاً من كلِّ ما يُنسَبُ إليك فما معنى هربك

على الأثر واختباتك في هذا الوادي ؟ »

« لأنعم مع الثعالب بما سرقة من ذهب الكرام ! »

« دعنا من المزح يا ليوناردو . »

« وأي مزح يا صاحبي في أن يهرب ليوناردو من الناس

ليتسنى له أن يقتص من نفسه لنفسه ؟ إنَّه لمتَّهى الشقاوة أن

تفصلك شعرةٌ لا غير عن قمة السعادة . »

« وما عسى تلك الشعرة أن تكون ؟ »

« هي خسارة في نفس ليوناردو . »

« افصح يا ليوناردو . »

« إنَّ في التلميح لإفصاحاً لمن يفقهون . »

« ولكنني لا أفقه . »

عندئذ وضع ليوناردو كوعيه على ركبتيه ، وأخذ رأسه

بين يديه وراح يضغط بهما على صدغيه . وبقي كذلك زمناً

لا يتحرك ولا يتكلم ، وعيناه محدَّتان بطرف أنفه ، حتى

خُيِّلَ إلَيَّ أن الرجل ذهل غي وعن نفسه ، وأنَّه قد انتقل

بروحه إلى غير هذا العالم تاركاً في المغارة جسده لا غير .
وكدت أبتّ بصدق ما تخيلت عندما تنهد ليوناردو ثم مد
يده وتناول الشبابة ونفخ فيها نفختين طويلتين . وإذا بثعلب ،
ثم آخر ، يبرزان من كوة صغيرة في أقصى المغارة ما انتهت
إليها من قبل . وإذا بالثعلبين يقفزان إلى حضن ليوناردو
ويأخذان يتوددان إليه بشئ الحركات ، مبصبين بذنبيهما ،
باسطين أيديهما على صدره ومُدنّيتي خطميهما من ذقنه . وهو
يمسد الشعر على ظهرهما بكلتا يديه ويخاطبهما بكلمات تقطر
حلاوة ومودة .

أما أنا فرحت أرقب كل ذلك غير مصدق عيني وقائلاً
في نفسي : « لأنه لساحر من غير شك . وها هو يوقعني ،
أنا كذلك ، في شرك سحره . » وأخيراً أوماً ليوناردو إلى
الثعلبين فارتدّا عنه وجثما على الأرض واحد عن يمينه والآخر
عن يساره ، وبقياً كذلك كأنهما ينتظران أمراً أو يتوقعان
إشارة . والتفت إليّ ليوناردو وقال بكلّ برودة كأن ما كان
يجري أمامي لم يكن غير أمر تافه عاديّ :
« دعني أقدم لك رفيقيّ الأمينين ، هذا شهلبّة وهذه

مهلبة . وقد دعوتهما لعلهما يفصحان لك أكثر مما يساعدني
نطقي على الإفصاح عنه . »

قال ذلك وراح ينفخ في الشبابة . فعوى الثعلبان عواء
منكراً يبعث القشعريرة في البدن والضباب في الدماغ
وبغثة انحدرت نبرات الشبابة العالية إلى بحثة خافتة بطيئة
ما لبثت أن انقلبت موجات من النبرات المتقطعة المتسارعة .
فانبرى الثعلبان يقفزان ويأتیان حركات متشابهة متساوقة كأنها
الرقص المدروس حتى أدقّ تفاصيله . وبقياً كذلك بين قفز
وترنّح إلى أن راحت الشبابة ترسل ألحاناً مهددة متواصلة .
وإذ ذاك أخذت حركات الثعلبين تتباطأ وتلاشى رويداً رويداً
إلى أن وقع كلاهما على الأرض بغير حراك ، كما لو أن
الاعياء أدركهما فما بقيت في مفاصلهما قوة على أقلّ حركة .
رفع ليوناردو الشبابة عن شفتيه وقال بين هازيء وجاد :
« أرايت كيف يكون السحر ؟ »

« أجل . إنه السحر بعينه . »

« ولكن ، أتدري أيننا الساحر — أهو أنا ، أم الشبابة ،

أم شهلبة ، أم مهلبة ؟ »

« ما أدري ولا أريد أن أدري . »
« ولا أنا أدري . ولكنني أريد أن أدري . لذلك أنا
هنا ومعى شبابي . »
« ولذلك تركتَ كمنجتك عندي ووليت هارباً ؟ »
« آ . ذاك أمر ستفهمه فيما بعد . وقريباً إن شاء الله . »
وسكت سكوتاً طويلاً مبمضاً ، والثعلبان كأنهما قتيلان .
وأخيراً ردّ الشاب إلى شفتيه وراح ينفخ فيها من جديد ،
ولكن ألعابه كانت غير التي سمعتها قبل . وإذا بالثعلبين
يتلململان وينهضان متثاقلين ثم يثبان إلى حضنه نشيطين ،
فرحين ، كأن شيئاً مما كان لم يكن . وإذا بليوناردو يصرفهما
عنه ليعود فيقول لي :
« أما وقد رأيت يا صاحبي ما رأيت ، وسمعت ما سمعت ،
فاذهب إلى الناس وقل لهم إن ليوناردو ساحر يستحق الموت . »
« ساحر ، ولكنه لا يستحق الموت . »
« أما قلت إن سحري قد سبب موت أم بهاء وسيسبب
موت والدها وموتها ؟ »
« قلت وما صدقت ما قلت . ففي داخلي ما يأتى أن يرى

فيك إلا الخير يا ليوناردو . ولكنني في حيرة من أمرك .
« أفلا أفهمتي بأية قدرة تفعل ذلك ، ولماذا ؟ »
« وكيف أفهمك يا صاحبي ما لست أفهم ؟ »
« عجيب ! ألا تفهم ما أنت فاعل ؟ »
« عجيب ! نعم عجيب . وأي شيء ليس بالعجيب ؟
أواثق أنت من أنك تفهم كل ما يصدر عنك ويعود إليك من
الأعمال والنيات والأفكار ؟ هل أنت فاهم لعجبية التنفس التي
تتمّ فيك ما دمتَ حيّاً ؟ ولا أذكر غيرها من العجائب . »
« التنفس أمر طبيعي مألوف . ولكن رقص الثعالب على
نغم الشبابة ، ثم نزع الحركة منهم ، ثم ردها إليهم ، — كل
ذلك ليس بالطبيعي ولا بالمألوف . »
« ما كان غير طبيعي عندك قد يكون طبيعياً عند غيرك .
ليس في الطبيعة ما يتجاوز حدود الطبيعة ، وإن تجاوز حدود
المألوف والمعقول عند الناس . ليس في الطبيعة من مستحيل .
ويا ليت حدودها ما كانت غير حدود المألوف والمعقول عند
الناس . إذن لما كان أسهلها مطية وأسلسها قياداً للإنسان . »
« ولكنك تفعل ما لا أستطيع فعله . وأنا إنسان مثلك . »

« لأنني غير ما أنت ، وأنت غير ما أنا . فنحن ما برزنا إلى الوجود في لحظة واحدة ولا سلكتنا طريقاً واحداً ، وإن يكن مصدرنا واحداً ومرجعنا واحداً . »

« أباستطاعتي ، لو شئت ، أن أفعل ما تفعل ؟ »

« من غير شك . إن لم يكن اليوم فغداً . فسحر الحياة واحد ، ولكنها تظهره على وجوه متفاوتة في الكائنات المتفاوتة الحس والإدراك والميول ، أما قلت لك إن الحياة هي وحدها الساحرة وإن كل ما في الكون مسحور بسحرها ؟ فما نحن غير مسحورين نسحر مسحورين . ما من حركة تأتيها ، أو كلمة نقولها ، أو شهوة نشتهيها إلا كان لها فعل السحر على إنسان ما أو مخلوق ما . وقد تفعل بأناس كثيرين ومخلوقات كثيرة . والساحر الذي تسر الحياة بأن تفيض منه قوة وعظمة وجمالاً هو المسحور بقوة الحياة وعظمتها وجمالها أي ، كلنا مسحور وساحر يا صاحبي . أما ترى السحر في اهتزازات أوراق هذه البطمة واهتزازات النور والظل على أرض هذه المغارة؟ وليوناردو بطمة عجيبة ما تنفك أوراقها في اهتزازات عجيبة لا تقطع فترة واحدة لا في النهار ولا في الليل . أما النسائم التي ما تفر

تهزّ أوراقى فأشواق ملحاحه ، حرّاقه ، أهمها شوق اللقاء . »

« وأي لقاء تعني ؟ »

« لقاء مَنْ سحرها كان أشدّ فعلاً بي من سحري بها .
فقد جعلت منى مجموعة عجيبة من الأوتار المشدودة أبداً ، والتي
لا تنفك تنبض ألحاناً بغير انقطاع . وما شبّابى وكنجى غير
منفذين ضيّقين أفرّج بهما بعض التفريج عن نفسى المكروية بما
يزدحم فيها من أنغام . أما الفرج الذى أرجوه فلن يكون
لي حتى يكون اللقاء . »

« أتسمح لي أن أسألك مَنْ هي ؟ »

« لقد ظننتني لقيتها منذ أجيال يوم كنت أرعى غنم والدها
فجاءت وتبعته شقيقتهما إلى هذا الوادى . ولكنها أفلتت من
يدي حين نفخت لها شوقى فى شبّابى فغابت عن الوعى
وغابت شقيقتهما ، وما تمكنت من إيقاظهنّ . فحطمت شبّابى
وهمتُ على وجهى أفتش عن النغم الذى أفلت من بين شفّيتى ،
لأن شفّيتى اشتهدتا فى تلك اللحظة قبله من شفّيتها : لقد أفسدت
شهوتى غايّتى . فعانيّ كانت أن أكتمل بها وراء حدود الزمان
والمكان ، وشهوتى كانت أن أتمتع بها ضمن حدود المكان والزمان . »

« إذن أسطورة وادي العذارى حقيقة لا أسطورة ؟ »
 « عدت فلقيتها أمس . وما أقرب أمس وما أبعد !
 فبشّتها أشواقي بأفواه أوتار كنجتي . وظننتني أفلحت حيث
 أخفقت من قبل . وعندما كدت أقتطف النصر صافياً ، كاملاً ،
 وجميلاً فوق كل وصف استيقظت الشهوة التي حسبني قهرتها
 من زمان ، فأفلت مني النغم ، ومع النغم النصر ، وقهرتني
 شهوتي ، فهمت على وجهي من جديد أقاهر شهوتي . وإني
 لقاهرها في النهاية . كن على ثقة من ذلك يا صاحبي . ولا
 تخف على بهاء . فحياتها ليست في خطر . أما حياة ليوناردو
 فالأخطار تحيق بها من كل صوب . والآن رجوتك أن
 تركني وشأني ، فأمامي معارك قاسية بعد ، ولا نصبر لي فيها
 سوى شوقي اللافتح وسوى شهلة ومهلبة . ثم لا يخطر لك
 ببال أن تعود إلى هذه المغارة . فلن تجلني فيها بعد اليوم .
 وأما ما رأيته وسمعته مني فحذار أن تبوح به لأحد . إذ لن
 يفهمه أحد . وزمانه لم يأت بعد . فإلى اللقاء يا صاحبي .
 ولا تيأسن من سحر الحياة . »

من سجن إلى سجن

« صدقيني يا ست وداد إن ما نطلين إلّي القيّام به
لفوق ما أستطيع . »
« ألا تحبّ ليوناردو ؟ »
« أحبه كثيراً . »
« ألا تعتقده بريئاً من كلّ ما ينسبون إليه ؟ »
« إن أكُ سارقاً أو ساحراً أو قاتلاً فليوناردو سارق
وساحر وقاتل . »
« ألا ترى أنّ العالم في أمسّ الحاجة إلى مواهبه الغزيرة ،
وفته الذي لا يحارى ، وأخلاقه البالغة من السموّ حدة
الكمال ؟ »
« إني أرى كلّ ذلك ، وأكثر من ذلك يا ست وداد . »

ولكنني لا أرى كيف لي أن أساعد سجيناً على الهرب من السجن ، ثم أن آويه وأستره عن عيون السلطة و عيون الناس في بيتي . لا . لا . عفوك يا ستّ وداد . ذاك هو المستحيل بعينه . »

« ولكنك لن تفعل أكثر من أن تتركب وليوناردو سيارة وتأتي به إلى بيتك . وما بقي فعمله منوط بغيرك . والنجاح مضمون . وأما بيتك فما اخترته إلا لأن الشكّ لا يمكن أن يتسرّب إليه في حال من الأحوال . وليوناردو لا يمكث فيه إلاّ ريثما يتسنّى لنا تهريبه خارج الحدود وذلك في خلال يومين أو ثلاثة لا أكثر . بالله عليك لا ترفض . ولو أنك رأيته وعرفت ما يلاقيه من تعذيب وإهانة وأوجاع لا تطاق لما رفضت . »

« كل ذلك يؤلّني أشدّ الألم يا ستّ وداد ولكنّ المستحيل مستحيل . »

تنهدت الست وداد تنهدة عميقة وسكتت على مضض ، وراحت تفرك يديها آنأ وعينيها آوتة ، ثم تعض شفتيها السفلى ثم تمسح جبينها الواسع بمنديلها وتردّ عنه الشعر المنرور

عليه ، وقد تورّدت وجنتاها كأنّ بها حمى . وكانت قد أتتني في ساعة متأخرة من النهار لتخبرني أن رجال التحري قد ألقوا القبض على ليوناردو منذ يومين وزجوا به في السجن وراحوا يذيقونه من التعذيب أشكالا ، وأنهم عند إلقاء القبض عليه وضعوا في جيبه ، من غير أن يلدي ، كمية من النقود وجوازاً مزوراً ليثبتوا تهمة السرقة والتزوير عليه . وأن الذي أرشدهم إليه ما كان غير صديقي أبي منصور — ناطور منطقتنا — فنال بذلك مكافأة مالية كبيرة من أبي بهاء الذي لن يكفني من ليوناردو بأقلّ من شرب دمه .

عندما أخذت محدثي منديلها بيدها ورفعته إلى جبينها لحظت ورقة صغيرة مطوية وقعت منه . ولحظت محدثي ترفعها فتضعها في حضنها دونما اكتراث . وفي خلال الحديث وقعت الورقة أكثر من مرة إلى الأرض . فكانت السيدة وداد ترفعها في كل مرة وتعيدها إلى حضنها . إلى أن وقعت مرة وبقيت على الأرض . فوجدتها سائحة أقطع بها السكوت المصنك وأرقه ، ولو لحين ، عن أفكار جليستي المضطربة . فتقدمت من الورقة ورفعتها وناولتها إياها قائلاً :



« لعلّ لهذه الورقة قيمة يا ست وداد . »
فانتفضت كمن كان في ذهول ثمّ ثاب إلى نفسه ، وقالت
بصوت فيه الكثير من الاعتذار والحجل :
« تبا لي من بليدة بلهاء ! لقد كدت أنسى الغاية من
مجيئي إليك . هذه رسالة حمّلتنيها ليوناردو وألحّ كلّ الإلحاح في
تسليمها لك يدأ بيد . »
أخذتُ الورقة ، وكانت مختومة ، ففضضتها وإذا فيها :
« أرجوك أن تأتيني في الغد ومعك الكمنجة . ليوناردو . »
رفعت الستّ وداد يسراها إلى نحرها ، ونفضت رأسها ،
وفتحت عينيها الواسعتين ، وبعد تردّد سألتني :
« هل لي أن أعرف ما في الرسالة ؟ إنه يحذرك ، ولا
شك ، مني . أحزرت أم لم أحزر ؟ »
« لا شيء من ذلك البتة . »
« إذن هو يحذرك من مساعدتي على تنفيذ الخطة التي
وضعتها لإيقاظه . أليس كذلك ؟ »
« ما أحزرت ولا هذه المرة . وما رأيه في خطتك ؟ »
« لم أطلعه عليها بعد لأنني واثقة من رفضه . »

«إذن تريد أن تنفذه من غير علمه وأن تهربي به
من السجن رغم أنه . »
« نعم . نعم . رغم أنه . فهو لن يحرك ساكناً واحداً
من تلقاء نفسه في سبيل خلاصه ، لأنه لا يعرف قيمة حياته
لنفسه وللناس . أما نحن فنعرفها . وعلينا أن نعمل المستحيل
لننقذها من الهلاك . حرام . حرام . »
« سنعمل ما في وسعنا يا ست وداد من غير أن نخرج
على القانون . »

« لا كان قانون يبطش بالأبرياء ويحمي المجرمين . والمجرم
الأكبر في هذه القضية هو أخي سليم الذي لا يأنف من نسف
حياة بريئة وشرب دم بريء . »
واستشاطت محدثي غضباً ، وراح الكلام يخرج من فمها
كأنه القذائف ، وشفاتها ترتجفان وتزبدان ، وعيناها تقدحان
شراراً ، ويداه لا تكفان عن الحركة ، ووجهها يلتهب بما
في قلبها من ثورة متأججة ، فلا ترحم أخاها ، ولا القانون ،
ولا رجال السلطة من أكبرهم حتى أصغرهم . وخشيت أن
تنتهي ثورتها بنوبة من الهستيريا . لكنها ، والزبد على شفيتها ،

والقذائف ما تزال تتسابق من فمها ، نهضت من حيث كانت
جالسة وضربت الأرض برجلها ضربة عصبية وهزلت إلى الباب
ففتحته وخرجت من غير أن تودعني . ولقد سمعتها تقول :
« الويل للذين عيونهم لا تسمع وأذانهم لا تبصر . أولئك هم
الظالمون . »

وكان ذلك آخر عهدي بالستّ وداد .

•

في صباح اليوم التالي أخذت الكمنجة وانطلقت إلى المدينة.
وكان همي الأول ، قبل الذهاب إلى السجن ، أن أقابل ذوي
السلطان ممن في يدهم الحلّ والربط فيما يتعلق بقضية ليوناردو
لعلني أقنعهم ببرائته وإخلاء سبيله . ولكن مساعيّ كانت أعقم
من النفخ في الرماد . فما كان أحد ليصدق أن ليوناردو ليس
بالساحر ولا بالسارق ولا بالزور . وأنه إنسان لا يمكن أن
يقاس بباقي الناس . فهو كتلة غريبة من الإحساس المرهف
إلى حدّ يفوق المؤلف والمعروف ، وأنه أقوى من أن يكذب ،
وأغنى من أن يسرق ، وأشدّ تقدّساً للحياة من أن يعيث بها

في أي مخلوق . فقد كاد الجواب يكون واحداً من كلّ جانب .

« إننا نُجِلّ آراءك ونُحترم عواطفك الإنسانية . ولكن خبرتك الضئيلة في شؤون المجرمين تجعل من السهل على مجرم محتك كليوناردو أن يتلاعب بعواطفك فيُظهر لك نفسه على عكس طويته بالتمام . أما خبرتنا الواسعة فتدلنا على أن هذا الرجل من أشدّ المجرمين ، إن لم يكن أشدهم ، خطراً على الهيئة الاجتماعية . ولدينا يّينات لا تُدحض على أنه سارق ومزور ومشعوذ من طبقة فوق ما خبرناه في المشعوذين . وقد وجدنا المال المسروق والجواز المزور في جيبه ، وشهد الناظر بأنه رآه ومعه ثعلبان يرقصان على نغم شبّابه . فتأمل ! إنه ليؤسفنا جداً أن نردّ شفاعتك الغالية . ولكن العدالة لا ترحم . »

لم يكن بدّ من الاعتراف بالمزمنة تجاه تلك السلود المنيعه . إلا أنني رضيت من هزيمتي بقصاصة من الورق تسمح لي بالدخول على ليوناردو ، وبمحادثته من غير أن يكون علينا رقيب ، وبأن أحمل إليه الكمنجة من بعد أن فحصوها أدق الفحص ،

ومن بعد أن أفهموني أنه لا يسمح له بالعزف عليها داخل السجن في حال من الأحوال .

دخلتُ على ليوناردو في زندانه الضيق ، المظلم ، العاري من كل شيء سوى حصير رث مفروش على أرض من الاسمنت . فوجدت ليوناردو متربعا على الحصير ، ويداه على ركبتيه ، وعيناه على طرف أنفه . وإذا رأي لم يتحرك من مكانه ، بل رفع إليّ عينيه النابلتين وقال متكلفاً الابتسام :

« جئت ؟ »

فأجبت متكلفاً ابتسامة كابتسامته :

« من مغارة وادي العذارى إلى هذا الزندان ؟ أيّ يوم

شاسع بين الاثنين يا ليوناردو ! »

« من سجن إلى سجن . »

« ولكن المغارة لم يكن فيها سياط تلهب جسدك النحيل ،

على حد ما أخبرت أنهم فاعلون بك هنا . »

« كان فيها سياط ولكن لا من الجلد والمرس . وتلك

السياط كانت أشد تنكيلاً بي ولكن آثارها ما كانت تظهر في

جلدي وعظمي . »

« هل عذوبك كثيراً يا ليوناردو ؟ »

« يكفيني أن أصابعي قد سلمت لي . »

« ظلموك ، ظلموك أشدّ الظلم يا ليوناردو . وأنا واثق من

براءتك . إلا أن لساني أقصر من أن يفتح قلوبهم المغلقة ،

ويدي أضعف من أن ترفع أيديهم القاسية عنك . »

« ظلموني فعدلوا ، ولكن من حيث لا يقصدون ، ومن

حيث لا تعلم يا صاحبي ولا يعلمون . إن ظلم الأرض من

عدل السماء . »

« أمن العدل أن يُجلّد مَنْ كان مثلك وأن يُهان ؟ »

« لو لم يكن في حياتي ما هو جدير بالجلد والإهانة لما

جلّدت ، ولما أهنت ، ولما وجدّني في هذا الزندان ، ولما كان

لي هذا الشعور المألء جوانب نفسي والذي كنتُ أشتاق

تنوّه كل حياتي ، فما تنوّهته حتى اليوم . »

« أباستطاعتك أن تبوح لي بذلك الشعور لعلّني أفهم ما

أغلق عليّ فهمه من أمرك ؟ »

« لقد تناثرت أوزاري عني تنائر الأوراق عن الشجرة في

الحريف . فأنا أحسني اليوم أخفّ من النسيم وأنقى من الثلج .
لقد تنقيت يا صاحبي من آخر خسارة في قلبي . ولأول مرة
في حياتي أقف عرياناً في حضرة الحقّ ، لا يسترني عنه ستار
فلا يحجبه عني حجاب . فالحق لا يتحجب عنا إلا على قدر ما
نتستر عنه . أنا اليوم صديق الموت والحياة بالسواء ، وصديق
كل الناس ، فلما حزنتَ فلا تمزّن عليّ ، بل على الرازحين
تحت أوزار الحياة والموت والمستترين عن الحقّ بالباطل . أولئك
ما أظفّ ساعتهم بعدد دعهم ينسجون لأعينهم الحجب ويصنعون
لآذانهم الأوقار . لا بدّ من يوم تُهتك فيه الحجب وتُنزع
الأوقار . لا بدّ لكلّ مشتاق إلى اللقاء من زندان . »

« ما قولك لو نحن دبّرنا لك وسيلة للخلاص مما أنتِ

فيه ؟ أترضى ؟ »

« الخلاص قريب . ولا بدّ منه . »

« أنت تعني أن المحاكمة باتت قريبة ، وأنت منذ الآن

راضٍ بالنتيجة مهما تكن . وأما أنا فأعني غير ذلك . »

« وماذا الذي تعنيه ؟ »

« أعني الهرب . أتهرب لو جاء من يكفل لك النجاح ؟ »

ابتسم ليوناردو ابتسامة صفراوية هازئة وقال هازئاً رأسه
على مهل من جانب إلى جانب :

« الهرب ؟ ! لقد فتكت بما كنت هارباً منه كل حياتي .
فممّ أهرب بعد اليوم ؟ »

« قد يحكمون عليك بالسجن المؤبد وبالأشغال الشاقة . وقد
يحكمون عليك بالإعدام . من يدري ؟ أفليس الأفضل أن تنجو
بحياتك ما دام إلى النجاة سبيل ، وما دام لك من يضمن النجاة ؟ »
« ويل الهاربين من شهواتهم لأنهم من سجن إلى سجن
يهربون ، وويل الهاربين من سجونهم فهم يهربون من متقلبيهم
من حيث لا يعلمون . أعطينها . »

كنت عازماً أن أطلع ليوناردو على ما كان بيني وبين الست
وداد بشأن تهريبه من السجن . ولكنني عدلت عن ذلك من
بعد أن سمعت منه ما سمعت .

ومدّ ليوناردو يده إليّ ليتناول الكمنجة . فناولته إياها
وأفهمته أن اللعب عليها غير مباح . ولكنه ، والكمنجة في
يده ، أصبح في ذهولي عني وعن كل ما حواليه . فما أظنّه
سمعتي أو اهتمّ أن يسمعني بل راح يدغدغ بيت الكمنجة

بيديه كما تدغدغ الأم طفلها أو العاشق معشوقه . ثم فتح البيت وأخرج الكمنجة برفق ، وتأملها طويلاً ، ثم أدناها من فمه وقبلها ثلاثاً ونقر كل واحد من أوتارها الأربعة نقرة لطيفة ، خفيفة ، وعيناه مطبقتان ، وعلى وجهه تنماوج خيالات شفافة مجلبة بنور هاديء مطمئن . وأخيراً وضع الكمنجة في بيتها ، وأحكم إقفاله ، وردّها إلى قائلاً :

« خذها معك ولاقني بها الليلة عند بهاء . »

« عند بهاء ؟ أنسيت أنك سجين ؟ »

« لا بدّ من ذلك . وعليك أن تدبّر الأمر . »

« ولكن أباه لن يقوى على ضبط أعصابه محالاً تقع

عينه عليك . وهو لا شهوة عنده اليوم أعزّ من شرب

دمك . »

« ليته يفعل ذلك . فقد يصحو من سكرته . إلا أنّ

وجوده يفسد عليّ عملي . فلا يجب أن يراني ولا يجب أن

أراه قبل أن أرى بهاء . بل يجب ألاّ يكون معي في مقابلة

بهاء أحد غيرك . »

« وما قصدك من زيارة بهاء ؟ ألتكأ جروح والدها

وتقضي على ما تبقى من أنحائها ؟ »

« إن لم أقابل بهاء فقد هدرت حياتي هدرًا وتحملت ما
تحملت من العذاب لغير ما غاية أو معنى . لا بدّ من اللقاء
يا صاحبي ، لا بدّ من اللقاء . ومن حسن حظك أن تقوم
بدور الوسيط . اذهب الآن بسلام وعد إليّ في المساء لنذهب
معاً لعند بهاء . ولا تنسَ ما أوصيتك به من زمان بشأن
الكمنجة . »

« أما قمت بوصيتك خير القيام فحفظت الكمنجة من كل
سوء وكتمتُ أمرها عن الناس . فماذا تريد مني بعد ؟ »
« لقد أوصيتك أن تحرقها وتدفن رمادها بين جذور صنوبرة
منفردة مسنة . فهل نسيت ؟ »

« ذاك إذا لم تعد بعد عامين . »

« لقد عشت عامين في شهرين . »

تظاهرتُ بأنني فهمتُ قصده ، وإن كنت لم أفهمه ، وأسرعت
في توديعه إذ بدأت أشعر بشبه دوار في رأسي قد يكون
ناجماً عن الهواء الفاسد في الزندان ، أو عن توجعي لحالة
ليوناردو ، أو عن اضطراب في أفكاري كلما حاولت أن أردّ

حكايته المعقدة إلى شيء من العقل والمنطق .

ما كان بالسهل عليّ أن أفوز من رجال السلطة بالإذن لليوناردو بمغادرة السجن ولو لساعتين . فقد كفلت لهم عودته بكلّ ما أملك من الصدق والشرف وسلامة النية وقوة الإقناع . إلا أن الصعوبة كل الصعوبة كانت في إقناع صديقي سليم الكرام بالسماح لليوناردو بأن يدخل بيته ، وبالأخصّ غرفة بهاء .

«أبقتلها ثم يحيي ليمشي في جنازتها ؟ وما قصده من زيارتها الآن والحياة فيها توشك أن تزهق ؟ وكيف أسمح لوغد مثله أن تقع عينه الأثيمة على وجه بهاء الطاهر ؟ لا . لا . لا يا صاحبي . إن خاطرك لعزيز لديّ ، ولكن ليس إلى حدّ أن أمتنّ من أجله عرضي وكرامي وأدوس شرني برجلي ، ومن ثم فكيف لي أن أملك أعصابي فأعرف أنه في متناول يدي ولا أذبجه وأشرب دمه ؟ لا . لا . عنرك يا صديقي . فما أظنني أقوى على تجربة كهذه . لا تجربي . لا تجربي . »

إلا أنني ، بعد مداورات طويلة ، تمكنت من التغلب ، إلى حدّ ، على ثورة أعصابه وأفكاره ومشاعره . فأخذت منه

وعداً بأن لا يتصدى لليوناردو بسوء . وبأن يختفي عن بصره
وبصري ، ما دمنا في البيت . إلا إذا دعوته بنفسه .
ورحت أرتقب المساء بفارغ الصبر لعلمي أفهم قصد ليوناردو
من زيارته لبهاء .

اللقاء

تغيرت بهاء ، حتى ان من رآها ليلة خطبتها لا يكاد يعرفها
اليوم ، فالمحجران الواسعان يبدوان كأنهما جدثان ترقد فيهما
تأثك العينان الخاملتان وقد لُفَّتَا بكفنين ناعمين ، شفافين من الجلد
الزعفراني ، هما جفناهما الأعلىان . والأهداب الطويلة ، السود ،
المقوسة إلى فوق قد التصقت بعضها ببعض واتكأت على حفاف
الوجنتين . والوجنتان الذابلتان والحدان الهابطان كأنهما من
الخص خالطه القليل من الزيت . والشفتان الرقيقتان مختمتان
بخاتم سرّ رهيب ، فلا تختلجان بحركة ، ولا تموّه صفرتهما إلا
بقية هزيلة من دم مهزوم . والأنف بمنخريه الدقيقين يتطلع
إلى السقف ويعالج الهواء ليأخذ منه نفساً بطيئاً ويرد إليه نفساً
أبطأ . واليدان مسبلتان فوق اللحاف الحريري ولكنهما لا قوة

فيهما ولا حياة . فالأصابع الهيف عظام تكاد تبصرها العين
من خلال الجلد المغلفة به . والأظافر ، ولم تقلم من زمان ،
لا لون فيها ولا لمعان .

هيكل بشري سوي . ولكنه لا في الحياة ولا في الموت ،
بل كأنه معلق بين بين . وليس من يلدي نصيبه من الاثنين .
أفي عينيه نور ، وأين ذلك النور ؟ أفي رأسه خيالات وأحلام ،
وما هي تلك الخيالات والأحلام ؟ أفي قلبه آمال وشهوات ،
وماذا هو فاعل بآماله وشهواته ؟ وما الفرق بين الموت والحياة
لمن لا قدرة فيه على الاستمتاع بمقومات الحياة ؟ أي خير في
نفس لا يرافقه فكر وإحساس وحركة ؟ بل أي خير في
فكر لا قدرة له على التجسد ، وفي إحساس لا سبيل له إلى
الظهور ، وفي حركة يتلعبها السكون ؟ أم أن في مطاوي
الزمان حالات تفوق التصور فلا هي بالحياة كما نعرفها ، ولا
هي بالموت كما ألفناه ، بل هي كينونة لا تفتقر إلى بيان ولا
تلتزمها حركة ؟

كان همي ، بعد أن دخلنا غرفة بهاء المنارة بنور خافت ،
ناعم ، أن أراقب وجه ليوناردو لعلي الملح عليه خيالات

الانفعالات القوية التي كنتُ أتوقع أن تثيرها فيه تلك المقابلة .
ولكن ليوناردو خيب ظني فقد كان وجهه كأنه وجه أبي الهول .
دنا ليوناردو من السرير ووقف عند رأسه وغرس بصره في
وجه بهاء ، فلا عيناه تتحركان ، ولا أجفانه ترف ، ولا عضل
من عضلاته يتمدد أو يتقلص . وبقي كذلك برهة خلتها دهرأ .
ومن بعدها التفت إليّ وقال بصوت منخفض :

« ساعدني . »

قلتُ وقد أدهشني طلبه :

« بماذا أساعدك ؟ »

فأجاب بالهمس ومن غير أن يأبه لدهشتي :

« ساعدني على تنقية الجو في هذه الغرفة . »

قلتُ والدهشة ما برحت بادية في صوتي :

« إن الهواء في الغرفة نقي . وها هي ذي نافذة مفتوحة .

أتريدني أن أفتح أخرى ؟ »

« بل اغلق النافذة المفتوحة وساعدني على تنقية الجو ما

فيه من أفكار سود ، وآمال محطمة ، وعبرات ، وزفرات ،

وحقد ، وبغض ، ورياء وما إليها . أما تشعر بثقلها ؟ »

قال ذلك وجثا على ركبتيه ، وأغمض عينيه ، وضم ذراعيه على صدره وانقطع عن الكلام والحركة . أما أنا فبقيت واقفاً أنظر إليه تارة وإلى بهاء أخرى ، وأفكاري تحاول عبثاً أن تنفذ إلى قلبه أو قلبها لعلي أدرك الصلة التي تربط بينهما من جانب ، وبينهما وبينني من الآخر . فما شأني معهما ، وما شأنهما معي ؟ بل ما شأن ليوناردو من بهاء ؟ وشأن بهاء من ليوناردو ؟ ولماذا هذه الدورات الغريبة في العلائق التي تربطهما ؟ أصبح ما لمح إليه ليوناردو من أتهما قد تعارفا في سالف الأزمان يوم كانت ابنة أمير عظيم وكان هو راعياً لأغنام أبيها ؟ إذن أنا قد شربت من دموعها في كل مرة شربت فيها من عين الدموع . وإذن بيني وبينها صلة ، وكذلك بيني وبين ليوناردو . فلا عجب أن تختارني الأقدار همزة وصل بينهما . وإذا صحّ ذلك فما أجهل الناس يقيسون العمر بفترة قصيرة من الزمان تنطوي ما بين المهد واللحد ، وأعمارهم تمتدّ ما امتدّ الزمان .

إلا أن العقل يأتى التسليم بشيء من ذلك . فالولادة في شرعه هي البداية ، والموت هو النهاية . وكلّ علاقة بين



إنسان وإنسان لا يمكن أن تسبق البداية ولا أن تتجاوز النهاية .
 أما أن تكون قبل البداية بدايات ، وبعد النهاية نهايات ،
 وأما أن يكون الزمان اتصالاً لا انقطاع فيه ولا انفصال ،
 وأن تكون الحياة كالزمان ، فأمر لا قبيل للعقل بهضمه .

ولكن ، أما قال لي ليوناردو مرة في الطبيعة : « يا ليت
 حدودها ما كانت غير حدود المؤلف والمعقول عند الناس . إذن
 لما كان أسهلها مطية وأسلسها قياداً للإنسان » ؟ أعله على
 صواب والناس في ضلال ؟

وبغثة نهض ليوناردو عن الأرض ، ونفض رأسه ، وبكلتا
 يديه ردّ إلى وراء الشعر الطويل الذي كان قد هبط إلى جبينه ،
 وأشار إليّ أن أناوله الكمنجة التي كنت أتأبطها . فأخرجها من
 بيتها بسرعة ، ووضع البيت جانباً ، ثم راح يوقع الأوتار بخفة
 ولباقة متناهيتين . وعندما استوت له راح يعزف .

لقد خيّل إليّ بادئ ذي بدء أن الكمنجة طفل في أول
 عهده بالمقاطع والكلام . فهي تلثغ ، وتردّد ، وتتعثّر ،
 ولكنها لا تردّد ولا تأبه للعثرات ، بل تضحك ضحك الأطفال
 مزهوة باكتشافها لذة النطق والبيان ، وإن يكن نطق طفل

وبيان طفل . وأحياناً كانت تنطلق انطلاق فرخ الطير من عشته ، وقد اكتسى بالريش واشتد جناحاه ، فألقى بنفسه في خضمّ اللانهاية ، ولأول مرة تذوق لذة القوة ، ونشوة المدى ، وسحر التسلط على الهواء . ذاك وقلبه الصغير في خفقان من هول التجربة ومن خوف الفشل ، ثم من غبطة الفوز ولحاجة الشوق إلى فوز أكبر وأبعد .

ما كان باستطاعتي أن أرافق الكمنجة في كل جولاتها ، وأن أفهم كل عباراتها . فقد فاتني منها الكثير . إلا أنني أخذت أحسّ اهتزازاتها في بدني حتى كأن كل قطرة من دمي كان يصلها سلك سري بأصابع ليوناردو وأوتار كمنجته . مثلما أخذت أحسّ ما يماثل تلك الاهتزازات في الجوف من حواليّ . وما عثمت أن شعرت كما لو كان جسدي بكامله آلة موقعة أتم التوقيع . فأحياناً أحسّتي بصراً حاداً لا غير . وأحياناً سمعاً مرهفاً لا غير . وأحياناً أبصر وأسمع وألمس وأشمّ وأذوق في آن كما لو كانت حواسي الخمس قد انصهرت في حاسة واحدة شاملة كاملة .

حياة تمطت بين فجر الزمان وغسقه راحت تتواهب عليّ

مشاهدها من جوف تلك الآلة الجوفاء كلما أمعن القوس وأمعت أصابع ليوناردو في أوتارها ضمّاً ولثماً . فمن غفوة يبضاء إلى يقظة سوداء ، ومن بهجة راقصة إلى حرقة صاهرة ، ومن طمأنينة تملأ رحاب النفس إلى قلق يقرض نياط القلب . إيمان وشكّ ، إعياء وراحة ، نصر وهزيمة ، زوايع وعواصف وصواعق وزلازل تتخللها فسحات من السكون الحالم ، والتأمل الهائىء ، والأمل الوائىء ، والاستقرار المطمئن . وهذه كلها يهيمن عليها حنين لاهب لا ينجو له أوار . حتى لأعجب للكنيجة كيف لا تلتهب في يدي ليوناردو ، وأعجب لليوناردو كيف عاش ما عاش من السنين وذاك الحنين لم يلتهمه بلحمه ودمه وعظامه .

رحت أخشى أن أصاب من كنجة ليوناردو بمثل ما أصيبت به بهاء . فحاولت غير مرة أن أفلت من سحرا هزاتاتها ولكن بغير جدوى . وحانت مني التفاتة إلى وجه ليوناردو وإذا به غير وجه ليوناردو . لقد انتشرت عليه سحابة من النور غيرت عليّ ملامحه . ففي العينين بريق عجيب ينجو ثم يتلأأ ، وعلى أطراف الشفتين المفتوحتين نصف فتحة بسمه

أخاذا تنهلّ منها شآبيب من الغبطة الوداعة الصافية ، وعلى
البحيين ندى نحيف شفاف يلمع كأنه الرذاذ في عين الشمس .
نقلت نظري إلى وجه بهاء وإذا به تطفو عليه سحابة
كالتّي على وجه ليوناردو ، وإذا بشفتي بهاء قد انفتحتا
كذلك عن بسمّة أخاذا ، وبجبيها قد تندى نظير جبين
ليوناردو . وإذا بجبيها يرتفعان قليلاً ثم ينخفضان ، وبأجفانها
ترتعش رعشات خفيفة متوالية . وكأني لمحت اللحاف على
صدرها يختلج صعوداً ونزولاً .

أهما عيناّي تخدعاني ، أم أن ما أراه هو حقيقة لا رؤيا ؟
أم هي كمنجة ليوناردو قد أطاحت حواسي فما أدري أفي يقظة
أنا أم في منام ؟

فركت عينيّ بيدي فركاً قوياً ، وفرصت وجنتيّ ثلاث
قرصات فتألمت . إذن لست في منام . وإذن بهاء تعود الحركة
إلى مفاصلها . أجل . أجل . ها هي أهدابها الطويلة المقوسة تتحرك
وتفتح أجفانها قليلاً ثم تنطبق . وها هي أصابع يدها اليمنى
تنكمش قليلاً ثم تنبسط . وها هو اللحاف فوق صدرها يزداد
اختلاجاً بين صعود وهبوط . بل ها أنا أسمع نفساً ضئيلاً وطويلاً

يخرج من صدرها ، وأبصر حمرة شفاقة تعود إلى وجنتيها .
 ما في ذلك شك . بهاء تسمع وتعي وتتحرك . لا . ما في ذلك
 شك على الإطلاق .

بلغت الكمنجة نفثة من نفثاتها خلطني أسمع فيها هدهدة
 النسائم في وادي العذارى ، وأبصر زرقة الماء الزلال في جرن
 عين الدموع ، وأكرع فيه فأحسّ عذوبته تمشي في عروقي ،
 ثم أتسلق الصخر إلى المغارة حيث شهلة ومهلبة يرقصان على
 أنغام شبابة ليوناردو ، ثم ينامان ، ثم يفيقان . فكأن الكمنجة
 انقلبت شبابة . وكأن الغرفة التي نحن فيها تحولت إلى المغارة
 في وادي العذارى . أفينتهي المشهد أمامي بمثل ما انتهى ذلك المشهد
 في المغارة ، وتستفيق بهاء مثلما استفاق شهلة ومهلبة؟ ولكنها
 تستفيق . بل هي قد استفاقت . أما أراها تتلمل في فراشها ،
 ثم تنقلب من ظهرها إلى جنبها الأيمن ، ثم من الأيمن إلى الأيسر ،
 ثم تردّ اللحاف عنها بكلتا يديها كأنها تستعدّ للنهوض؟ بلى . بلى .
 ومن الحق أن يشهد والدها ما أنا شاهد .

ومن غير أن أستأذن ليوناردو الذي كان في ذهول غني
 وعن كل ما في الأرض ، ما عدا كمنجته وبهاء ، خرجت من

الغرفة بخفة النسيم ورحت أفتش في البيت عن صديقي سليم
غير عالم بأية كلمات وأية إشارات أزف إليه البشرى . وإذا
عثرت عليه قابلاً في زاوية من زوايا ردهة الاستقبال الفسيحة ،
ورأسه بين يديه ، ودموعه تترقرق على خديه ، لم أجد ما
أقوله أو أفعله خيراً من أن آخذه بيده وأحاول أن أجره
ورائي . لكنه ما أسلس الانقياد لي . بل سحب يده من
يدي بغضب وقال :

« إلى أين ؟ »

قلت : « إلى غرفة بهاء . »

فأجاب مصرّفاً بأسنانه : « قلتُ لك لا تجربني يا صاحبي .
فأنا أضعف من أن أقوى على التجربة . أنه ما أنت فيه
وانصرف به عني . وإلا فأنا قاتله لا محالة . »

« ولكنه قد ردّ إليك بهاء . »

« ردّ إليّ بهاء ؟ »

« نعم . نعم . لقد أفاقت بهاء . »

ما صدق المسكين كلامي . ولكنه انقطع عن معاندتي ومشى
معي . وما إن بلغنا الباب حتى أبصرنا بهاء جالسة في فراشها ،

ويداها على صدرها ، وعيناها الواسعتان شاخصتان إلى ليوناردو
الذي ما انفكَّ يعزف ويعزف .

شعرت بصديقي يهتزّ جسمه الجبار ويتفض كأنه في نوبة
من البرداء ، ثم رأيت عينيه تنفتحان دهشة وتنقلان بسرعة
البرق من بهاء إلى ليوناردو ومن ليوناردو إلى بهاء ، ورأيت شفّته
ترتجفان ونحاولان الكلام فما تستطيعان . وشعرت به
يتحفز للوثوب إلى حيث ابنته . فضغطت على يده ضغطاً قوياً
وأشرتُ إليه بالسكوت والحمد ريشما يتهي ليوناردو
من عزفه .

وكانت الكمنجة ترتجح كأنها النشوان . ولكن بسلافة
ما عرفتْها الأرض . فقد راحت أنغامها الصافية إلى أقصى
حدود الصفاء تنتثر أشعة وهاجة مؤنسة . ثم تتعالى وتتعالى
فلا تقف عند حدّ ، ثم تتلاشى في سكونة كلها ألحان ، وكلها
أسرار ، وكلها سحر .

ما إن سكنت الكمنجة حتى بسطت بهاء ذراعيها نحو
ليوناردو وهتفت بصوت يستحيل وصف ما فيه من اللفهة
والحنان والظفر :

« ليو - نار - دو ! »

فأجابها ليوناردو بصوت فيه مثل ما في صوتها من اللهفة
والحنان والظفر :

« ها أنذا يا بهاء ! »

والحال وقعت الكمنجة من يده ، وعلى الأثر وقع هو
كذلك متماهلاً إلى الأرض حيث انطوى على ذاته كأنه الثوب .
وما هي غير لحظة حتى رأينا بهاء تنطوي على نفسها وتهبط إلى
الوسادات التي على سريرها .

عندئذٍ تقدم الوالد ، وقد فارقت الرجفة ، ودنا من سرير
ابنته وناداهما باسمها فلم تجب . وجس معصمها فإذا لا نبض
به ولا حياة . ثم تناول يد ليوناردو فإذا بها كذلك بغير حياة .
ولكم أدهشني وهزّني أن أراه يضع يد بهاء في يد ليوناردو ثم
يكب على الاثنين فيقبلهما ، ثم أن أسمعته يتمتم : « ولدي بهاء .
ولدي ليوناردو . » ثم أن يلتفت إليّ ويقول من غير أن أسمع
في صوته أخف أثر لأخف غصة :

« تلاقيا . »

•

على الربوة الخضراء ، في ظلّ صنوبرة منفردة مسنة ،
حجرة فخمة من المرمر النادر وقد حفرت في أعلاها بأحرف
بارزة كبيرة كلمة « لقاء » ومن تحتها بأحرف أصغر :
« ليوناردو — بهاء »

وفي التراب ، بين جنور الصنوبرة ، قارورة من المرمر
عينه تحوي رماد الكمنجة التي ما باحت بسحرها لغير
ليوناردو .

لِقَاء

٧	الوديعة
١٩	الكمنجة الجانية
٣٥	آراء
٥٠	وادي العناري
٦٥	شهبة ومهلبة
٨٢	من سجن إلى سجن
٩٩	لقاء

للمؤلف

أكابر	الآباء والبنون
أبعد من موسكو ومن واشنطن	الغربال
أبويطة	المراحل
سبعون (٣ أجزاء)	جبران خليل جبران
اليوم الأخير	زاد المعاد
هوامش	كان ما كان
أيوب	همس الجفون
يا ابن آدم	البيادر
في الغربال الجديد	كرم على درب
أحاديث مع الصحافة	الأوثان
نجوى الغروب	لقاء
رسائل	صوت العالم
من وحي المسيح	النور والديجور
ومضات (شذور وأمثال)	مذكرات الأرقش
The Book of Mirdad	كتاب مرداد
Kahlil Gibran	النبي (ترجمة)
Memoirs of a Vagrant Soul	في مهبط الريح
Till We Meet and Twelve	دروب
Other Stories.	

المنادين من غبط الشيخ لمحمد مكارم
الرسوم بريشة وضوان الشهاب

لقاء

إذا كان لكل أمة أن تزدهي بكتّابها وشعرائها،
وأن تنبهي بعباقرتها وفلاسفتها ومفكرتها، فقد حق
لنا نحن أبناء الأمة العربية أن نضع ميخائيل
نعيمه في رأس مفاخرنا الروحية والأدبية في هذا
العصر.

إن ميخائيل نعيمه مدرسة إنسانية فريدة
ومذهب مضيء من أنبل مذاهب الفكر الإنساني
العربي والعالمي.

«لقاء» حكاية روحين جميلين يفتش أحدهما عن
الآخر منذ الأزل ثم يتلاقيان، دبجتها براعة مرهفة
الحس والذوق والفكر، مناخها يصل الأرض
بالسماء، وهو مفعم بالأسرار والأنوار، يستحوذ
على القارئ من أول الكتاب فلا يستطيع الإفلات
منه حتى بعد أن يأتي على آخره.

تحفة أدبية وفكرية لا مثيل لها في العربية،
وهي نادرة في الأدب العالمي الخالد.

الناشر